

17 سلسلة دراسات استراتيجية

النظرية والأيدولوجية في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة

جونى عاصى

تعقيب

د. سمير عوض

د. سامر الفارس

2006



معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية
Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies

جونى عاصى

النظرية والأيدولوجية في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة

معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية



BIRZEIT UNIVERSITY



النظرية والأيدولوجية في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة

جونى عاصى

تعقيب

د. سمير عوض

د. سامر الفارس

النظرية والأيدولوجية في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة
جونى عاصى

تدقيق لغوى: وسام رفيدي

الطبعة الأولى - تشرين ثانى/ نوفمبر - 2006

© جميع الحقوق محفوظة

ISBN 9950-316-359



معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية
Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies

Birzeit University
Tel: +972 2 2982939
Fax: +972 2 2982946
E-mail:
Website:
P.O.Box 14, Birzeit
Palestine

giis@birzeit.edu
<http://home.birzeit.edu/giis>

جامعة بيرزيت
هاتف: +972 2 2982939
فاكس: +972 2 2982946
بريد الكتروني:
صفحة الكترونية:
ص.ب ١٤، بيرزيت
فلسطين

تم نشر هذا الكتاب بدعم من
الوكالة السويسرية للتنمية والتعاون

**Financial support for the IALIIS publications is contributed by
Swiss Agency for Development and Cooperation**

تنفيذ مؤسسة الناشر للدعاية والإعلان - رام الله

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها معهد
إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية.

هذه السلسلة

لأنه من المفترض كي يتم التوصل إلى قرارات سياسية رشيدة أن تكون عملية صنع القرار السياسي والسياسات مرتبطة بالمعرفة ومصادرها المجتمعية والأكاديمية، ولكون ذلك الارتباط يعاني من إشكاليات عديدة في الحالة الفلسطينية، ما يؤدي لأن يكون الكثير من القرارات السياسية وتلك المتعلقة بصنع السياسات إرتجالياً وعشوائياً، ارتأى معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية أن يباشر بمشروع طموح يحاول من خلاله الإسهام في سد الثغرة الموجودة في مجال الترابط بين صناعة القرار السياسي الفلسطيني والمعرفة. ولذلك، تبنى المعهد مشروع (سلسلة أوراق إستراتيجية).

يقوم المشروع على إعداد أوراق تحليلية في مجالات سياسية وحول موضوعات تتطلب صنع سياسات، وتكون لذلك موجهة بذلك الاتجاه. وعند إعداد ورقة معينة يتم الطلب من اثنين أو ثلاثة من المختصين في المجال أن يقدموا تعقيبات عليها. ومن ثم تعقد ندوة متخصصة تجمع بين سياسيين وأكاديميين ومهتمين لعرض الورقة والتعقيبات. ويتم خلالها إجراء نقاش حول الموضوع المبحوث. بعد ذلك تنشر الورقة والتعقيبات ووقائع الندوة، وما يظهر عنها من مقالات صحافية، في كتاب يُوزع على المؤثرين في صنع السياسة المتعلقة بهذا الموضوع، ويكون في متناول المهتمين والجمهور أيضاً.

وبالتالي، فإن هدف هذا المشروع لا ينحصر فقط بإعداد أوراق بحثية تخصصية حول موضوعات حيوية، وإنما يحاول أيضاً توفير منبر حر لإجراء حوار صريح، جدي، وموضوعي حول قضايا ذات أهمية عامة واهتمام عام، علّ ذلك يكون مفيداً وذا أثرٍ إيجابي في تكريس تقليد يربط بين المعرفة وعملية صنع القرار السياسي والسياسات في البلاد.

المحتويات

- النظرية والأيديولوجية في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة..... ٧
مقدمة..... ٩

الفصل الأول

- اللا مُفكّر فيه في النظرية «الواقعية الجديدة»،
نهاية الامبرطورية السوفييتية..... ١٣
١- الواقعية الجديدة على المحك..... ١٩
٢- من الواقعية الجديدة الى الواقعية ما بعد التقليدية..... ٢٨

الفصل الثاني

- العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة:
البنية والهيمنة..... ٣٩
١. التغير في البنية: التعقد والانتقالية الديالكتيكية..... ٤١
٢. الهيمنة في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة..... ٥٦
تعقيب د. سمير عوض..... ٧٧
تعقيب د. سامر الفارس..... ٨٣

النظرية والأيدولوجية في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة

جونى عاصى*

* أستاذ القانون الدولي - جامعة بيرزيت.

مقدمة

تطورت نظرية العلاقات الدولية كإحدى تخصصات العلوم الاجتماعية الأمريكية. في البداية، ارتبطت باجتهادات واقعيين مثل هانس مورغانتاو وجورج كينان، لكن منذ أواخر السبعينات، كان هناك تجديدا في المدرسة الواقعية على يد كينيث وولتز وجون ميرشهايمر. أراد أنصار الواقعية الكلاسيكية نقل «فن السياسة»، مع كل ما يتضمنه ذلك من غموض، حظ، وحيلة، الى العلاقات الدولية، بينما يريد الواقعيون الجدد تطوير نظرية علمية تتميز بالوضوح، البساطة، والموضوعية. عكس هذا التجديد طموحا يهدف الى تحويل الواقعية الى نظرية علمية في العلاقات الدولية.

شكلت نهاية الحرب الباردة (الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي سابقا) منعطفا تاريخيا لا بد وأن يكون له آثاره على الجهد النظري في العلاقات الدولية. فنهاية الحرب الباردة تمثل أولاً تحد للطموح العلمي للواقعية الجديدة، وتفسح المجال ثانيا للاهتمام بالجهد النظري في موضوع العلاقات الدولية خارج الولايات المتحدة، حيث يكثر الحديث اليوم عن مساهمات المدرسة الإنجليزية (مارتن رايت وهيدلي بول) والمدرسة الفرنسية (ريمون ارون ومؤرخي العلاقات الدولية، بيير رونفان وجون باتيست ديروسيل).

فيما يخص النقطة الأولى، تُنتقد الواقعية الجديدة لأنها أرادت أن تكون النظرية في العلاقات الدولية، وليست مجرد قراءة بين عدة قراءات للحرب الباردة. وهي تُنتقد أيضا في توجهها العقلاني (الوسيلة-الهدف)، لكن هذا التوجه ليس فقط واقعا جديدا، بل نجده أيضا في الليبرالية الجديدة والمؤسساتية. لتوضيح هذا التوجه يستعين هؤلاء بنموذج «معضلة السجين» والذي يشير إلى خيارات تنطلق من المصلحة عند اللاعبين، دون الاكتراث بالإطار الاجتماعي الثقافي¹.

¹ الانسان هو ايضا كائن اجتماعي homo sociologicus وليس فقط انسان عقلاني homo economicus هذا يعني ان الفعل ليس داننا انطلاقا من المصلحة قد يكون التزاما بقاعدة اجتماعية معينة. هذه القواعد تنظم عالمه الاجتماعي وتحدد مكانه في هذا العالم.

Martin Hollis, The philosophy of social science: An introduction, Cambridge, Cambridge University Press, first edition, 1994, 2002, pp.153-157

في بعض المجتمعات، الاعتراف من السجن قد يعتبر خيانة أو فقدان الرجولة. نموذج آخر هو نموذج «حريق في المسرح» لا يوجد فيه إلا مخرج واحد فقط. في حالة حريق (فوضى)، هل سيتنافس الكل ضد الكل؟ ومن سيخرج أولا؟ القوي قبل الضعيف والمعوق؟ الرجال قبل النساء والأطفال؟

هذا يقودنا إلى النقطة الثانية، حيث الجدل النظري في العلاقات الدولية لم يعد أمريكي-أمريكي (واقعية جديدة-لبرالية جديدة، واقعية جديدة-بنائية)، بل تعدى ذلك ليشمل المساهمات الأخرى، والتي ربما تشترك مع النظرية البنائية بتوجهها السوسيولوجي والتاريخي. في نموذج الحريق في المسرح، نرى أهمية القيم والقواعد الاجتماعية. هل يعقل الحديث عن نظام سياسي دولي دون الحديث عن عملية تنشئة سياسية لأعضاء هذا النظام؟ هل يكفي اعتبارات مرتبطة ببنية النظام الدولي وفقا للرؤية الواقعية الجديدة، مثل انعدام سلطة عليا عالمية وتنافس بين الدول في المجال الأمني، لأن تكون أساسا لتنشئة اجتماعية للدول الأعضاء؟ بالنسبة لأحد رموز المدرسة الانجليزية، هيدلي بول، لا وجود لنظام دولي دون مجتمع دولي، وهذا يؤشر إلى أن معايير وقيم مثل الدولة، السيادة، والقانون الدولي، هي أساس لعملية تنشئة سياسية، والتي تسمح بتوقع سلوك أعضاء هذا المجتمع.

كذلك، ولنفرض أن سلوك الدول دائما انطلاقا من المصلحة، هل يمكن تعريف المصلحة بمعزل عن إطار اجتماعي تاريخي معين؟

في نظر المفكر الاجتماعي بيير بورديو «الممارسات التي يتم تفضيلها (habitus) تخلق هوية ومصلحة ترتبطان عضويا وجوهريا بهذه الممارسات». هوية اللاعب لا بد وأن تحدد مصلحة وتصرف اللاعب، وتعطي أيضا إمكانية التنبؤ بتصرفه (قل لي ماذا تأكل، أقول لك من أنت). بنفس الوقت الذي تطرح فيه الهوية، الذات، فهي تعطي صورة عن الآخر. موضوع الهوية وصورة الآخر نجدها أيضا، وكموضوع أساسي، في المدرسة التاريخية الفرنسية للعلاقات الدولية التي يمثلها بيير

رونفان²، والذي تأثر باجتهادات مدرسة Annales التي أقامها فرديناند بروديل. مصطلح «القوى العميقة» عند رونفان يجمع القوى المادية (الجغرافية، الديموغرافية، الاقتصادية، والعسكرية) والقوى الروحانية (تماسك المجتمع، والشعور القومي). إذن، يشير مصطلح «القوى العميقة» الى حساسية تجاه الإطار والمكان والحركات الاجتماعية داخل المجتمع، كما أنه يهتم بالذاتية الجماعية (الهوية) لكل شعب.

ما نطمح إليه في هذه الورقة هو فهم العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة. هل نستطيع القيام بذلك من خلال الاستعانة بمصطلح البنية عند أنصار الواقعية الجديدة، والذي هو عبارة عن مصطلح مجرد، وقابل للنقل إلى أي مكان وإطار اجتماعي؟ هل نستطيع من خلال التركيز على القوة العسكرية والاقتصادية فقط استيعاب ما يجري حالياً من أحداث على الساحة الدولية؟ ماذا عن القوة الأيديولوجية والهيمنة؟ هل يهم فقط «علمية» النظرية أم أيضاً المشروع السياسي الذي تتضمنه هذه النظرية؟

² Robert Frank, 'Penser historiquement les relations internationales' Annuaire Francais des Relations Internationales, 2003, vol.4, http://www.diplomatie.gouv.fr/fr/actions-france_830/etudes-recherches_3119/annuaire-francais-relations-internationales_3123afri-2003_8324html

الفصل الأول

I- اللامفكرّ به في النظرية «الواقعية الجديدة»، نهاية الامبرطورية السوفييتية:

«سواء كان ذلك بالنسبة لمصالحنا الداخلية او لمصالح
سياستنا الخارجية، فنحن لسنا بحاجة الى صورة امريكا
كعدو.» ميخائيل غورباتشوف

قاد التغيير في السياسة الخارجية السوفييتية تحت قيادة ميخائيل
غورباتشوف إلى حالة سلم جديدة بين القوى العظمى بعد عام ١٩٨٧،
وإلى انسحاب سلمي للقوات السوفييتية من اوربا الشرقية، وتوحيد
ألمانيا في عامي ١٩٨٩/١٩٩٠، وأخيراً إلى انهيار الإمبراطورية
السوفييتية في عام ١٩٩١. لم تكن هذه الأحداث التاريخية متوقعة،
وقابلة للتنبؤ، لهذا فهي لا يمكن إلا أن تترك أثراً على نظرية العلاقات
الدولية. في مؤتمر حول «العلاقات الدولية ونهاية الحرب الباردة» اكد
احد المشاركين فيه بأن هذه الأحداث لا تشكل الا «مسألة بسيطة تتعلق
بالتفاصيل»³ دون أية تداعيات على النظرية. هل يمكن دعم موقف كهذا،
إذا أخذنا بالاعتبار أن النظرية الواقعية انبثقت من احداث تاريخية في
الثلاثينات من القرن العشرين، بفضل قراءات لهذه الاحداث من قبل
مختصين مثل ادوارد كار⁴ وهانس مورغانتاو⁵؟

³ Cited by "Richard Ned Lebow, The long peace, the end of the Cold War, and the failure of realism» International Organization 48, 2, 1994, pp.249-277, pp.251.

⁴ E. H. Carr, The Twenty Years crisis: 1919-1939, London, Macmillan, 1939

⁵ Hans J. Morgenthau, Politics between nations, New York, Knopf, 1948.

هذه الأحداث التاريخية التي أنهت الحرب الباردة أثارت عدة اجتهادات تحاول إعادة صياغة نظرية العلاقات الدولية من خلال انتقادها للواقعية الجديدة، كونها تمثل الحجر الاساسي لنظرية العلاقات الدولية. تنطلق النظرية الواقعية الجديدة من بنية النظام الدولي، وبهذا، فهي تختلف عن التعليل الذي يركز على مستوى الوحدة-الدولة. في نظر كينيث وولتز، فإذا كانت القدرات من سمات الوحدات-الدول فإن توزيع هذه القدرات يعد مصطلحاً خاصاً بالنظام الدولي⁶. تعليل التغيير في توزيع القدرات يرتكز لديه على تغير في تشكل «اقطاب» القوة: قوة كل دولة نسبة للدول الاخرى. هذا يعني تعليل نتيجة خارجية بواسطة اسباب خارجية، تتواجد على مستوى النظام الدولي. تشير البنية، إذن، إلى البيئة أو الإطار الذي يحصل فيه الفعل الدولي، بكلمات أخرى هي عبارة عن مجموعة من القيود التي تحدد خيارات اللاعبين على الساحة الدولية.

النقد الذي يوجه الى النظرية الواقعية الجديدة استهدف قدرتها التنبؤية وقدرتها التعليلية للأحداث التاريخية التي اتت بنهاية الحرب الباردة. هل تستطيع الواقعية الجديدة مثلاً تعليل التغيير في صورة العدو كما ورد في كلمة ميخائيل غورباتشوف اعلاه؟

فيما يتعلق بالنقطة الأولى، والتي تخص القدرة التنبؤية للعلوم الاجتماعية، يطرح السؤال، بشكل عام، إذا كنا لا نسلك طريقاً غير صحيح بالتساؤل حول القدرة التنبؤية للنظرية الواقعية الجديدة. حسب عالم السياسة تيمور كوران⁷، فإن عنصر المفاجأة هو دائماً عنصر مكون للثورة. فهو يقول أن «الحتمي ليس حدوث الثورة إنما المفاجأة عند حدوثها». بالاضافة إلى ذلك، يتفق فيلسوف العلوم جورج فون رايت⁸ والمؤرخ

⁶ "Keneth Waltz, Realist thought and Neorealist theory, Journal of International Affairs, Vol. 44\N0.1 spring 1990 pp.21-37

⁷ Timur Kuron, 'Now out of never: Surprise in the East European Revolution of 1989' World Politics October 1990 Vol.44 N0.1 pp.7-48

⁸ Georg Henrik Von Wright, Explanation and understanding, Ithaca, New York, Cornell University Press 1971

بول فيين⁹ على أنه في مجال التاريخ، فالمنهج المفضل ليس المنهج التنبؤي (prediction) بل المنهج الاستعادي (retrodiction). «مشاكل المنهج الاستعادي، يقول بول فيين، هي مشاكل احتمالية الأسباب، أو بكلمات أفضل، احتمالية الفرضيات: في حالة وقوع حدث معين ما هو التعليل الجيد». كما أن فون رايت يرى أن التنبؤ يمكن أن يستخدم داخل المنهج الاستعادي. ويمكن أن يشهد على ذلك اجتهاد المؤرخ الكبير اريك هوبسبوم¹⁰ عندما يدعونا لتخيل فرضية انتصار النازية في الحرب العالمية الثانية لكي نستطيع القيام بتقييم عادل لدور التجربة السوفييتية في السياسة الدولية في القرن العشرين.

فيما يتعلق بالنقطة الثانية، القدرة التعليلية للنظرية الواقعية الجديدة، لا بد من التأكيد أن الطموح بأن تمثل المنهج العلمي في موضوع العلاقات الدولية أدى بأن تكون ذات طابع اختزالي reductive من خلال تهميشها لمسائل مهمة، مثل مسألة الامبراطورية. في محاولتها تجاوز الواقعية الكلاسيكية، انتقدت الواقعية الجديدة نزعتها التاريخية، والتي تنعكس في ميل انصارها للتأكيد على دور الافراد والايديولوجيات في التاريخ. يظهر لي هنا أن مقارنة جيوسياسية كما نراها، ليس فقط عند بعض المؤرخين مثل بول كندي، روبرت جيلبن، إنما أيضاً عند علماء اجتماع مثل ايمانويل فالرشطايين، وروبرت كوكس، هي وسيلة افضل لفهم العلاقات الدولية في فترة الحرب الباردة ونهاية هذه الحرب، والتي هي ناتج لنهاية الامبراطورية السوفييتية. الجيوسياسية تمثل فهم للإطار الجغرافي، الاستراتيجي، والاجتماعي الذي تفتقده النظرية الواقعية الجديدة.

المنهج العلمي يتضمن التعليل والفهم أو التفسير. التعليل بمثابة طموح نحو الموضوعية، وهو ما يميز العلوم الدقيقة، أما التفسير فينظر إليه أنه أقل موضوعية لأن الباحث يقحم في تفسيره ذاتيته. في نظر ريمون

⁹ Paul Veyne, Comment on écrit sur l'histoire, Paris, Editions du Seuil, 1971

¹⁰ Eric Hobsbawm, The age of extremes: A history of the world 1914-1991, New York, Pantheon Books, 1994

بودون (عالم اجتماعي فرنسي ذا توجه فيبري)، التعليل هو هدف كل تفسير، والتفسير هو تعليل ضعيف. هذا يعني أن هناك استمرارية بين العلوم الدقيقة والعلوم الاجتماعية من الناحية الأبيستولوجية، لكن هناك عدم استمرارية من الناحية السسيولوجية. تعود «عدم الاستمرارية» إلى أمرين:

- ♦ النظرية في العلوم الدقيقة لا تثير إلا اهتمام المختصين (esoterism)، أما النظرية في العلوم الاجتماعية فهي قد تثير اهتماماً واسعاً يتعدى المختصين (exoterism).
- ♦ في العلوم الاجتماعية من الصعب تحقيق تعليل يستند الى قوانين ثابتة، ما نجده هو نظرية ذات طابع محدود أو تعليل ضعيف.

لذا هناك دائماً خطر الانزلاق الأيديولوجي عند محاولة طرح تفسير معين على أنه تعليل. الأيديولوجية هي نظرية اجتماعية وسياسية، أو طرح كأنها نظرية اجتماعية أو سياسية علمية أو تستند الى العلمية دون أن تكون كذلك بالمعنى الضيق. هذا الانزلاق الأيديولوجي يتمثل في طرح النظرية الواقعية الجديدة وكأنها النظرية في العلاقات الدولية، وهي لم تكن إلا قراءة محلية (الحرب الباردة¹¹). لا بد هنا أن نذكر

¹¹ "Science(...), is a matter of rigor in the development of concepts and in the appraisal of evidence. There is an inevitable ideological element in science which lies in the choice of subject and the purposes to which analysis is put. The troublesome part comes when some scientific enterprise claims to transcend history and to propound some universally valid form of knowledge. Positivism, by its pretensions to escape from history, runs the greater risk of falling into the trap of unconscious ideology"

Neorealism, both in its Waltzian structuralist form and in its game-theoretic interactionist form, appear ideologically to be a science at the service of big-power management of the international system. There is an unmistakably Panglossian quality to a theory published in the late 1970's which concludes that a bipolar system is the best of all possible worlds. The historical moment has left its indelible mark upon this purportedly universalist science" Robert W.Cox and Timothy J. Sinclair, Approaches to World Order, Cambridge, Cambridge University Press, 1996, pp.56-57

تواضع أنصار الواقعية الجديدة بعد نهاية الحرب الباردة، حيث اعترف كينيث ولترز بأن نظريته هي «بناء نظري ضعيف» (slender¹² theoretical construct) أي لا تستطيع تفسير كل شيء، وتحتوي هي أيضاً على قسط من التعسفية والاستنسابية. أدت نهاية الحرب الباردة إلى اعتبار أن الواقعية الجديدة توفر إحدى القراءات للسياسة الدولية، وليس القراءة الوحيدة والعلمية. يرى جون جاك روش أن «النظرية لم تعد تطمح إلى معرفة موضوعية للواقع المدروس، فهي تقبل الآن بقسط من التعسفية. تتمثل النظرية باختيار عدد معين من العوامل له قدرة تحليلية أكثر من غيره، وتقوم بتنظيم هذه العوامل واختبارها. كذلك، تسمح النظرية بتسوية بين المنهج العلمي وقيود الفعل. مع ميلها لتوفير إرشادات من أجل الفعل (praxeology) لم تعد النظرية تدعي إلا تقديم إطاراً تحليلياً آخر أو إضافي. لم تعد النظرية إلا وسيلة أقل إمبريقية من غيرها¹³».

لكن هناك معنى آخر للأيديولوجية، ويشير إلى معيارية الباحث (انظر روبرت كوكس في المرجع ١١). تظهر الواقعية الجديدة، ولأول وهلة، أنها حيادية وغير أيديولوجية، لكن لا يمكن تجاهل صعودها في فترة تاريخية تميزت أيضاً بصعود الليبرالية الجديدة. في نظر ريتشارد اشلي¹⁴ «الواقعية الجديدة تمثل حركة أيديولوجية تأخذ منحى يعطي صبغة اقتصادية للسياسة». بالإضافة إلى الرؤية الواقعية للنظام الدولي، تتبنى الواقعية الجديدة نموذج اقتصاد السوق. كما إن أيديولوجية الواقعية الجديدة تتجلى في تفضيل أنصارها للوضع القائم، وفي كونها نظرية «شمالية» بمعنى أنها تهدف بالأساس إلى تحليل «السلم الطويل» في الشمال، دون الاكتراث بدول الجنوب أو العالم الثالث (يقدر البعض ضحايا الحرب الباردة في الجنوب بـ ٢٢ مليون ضحية).

¹² Kenneth Waltz, *ibid*, 1990, pp.32

¹³ Jean-Jacques Roche, 'Les relations internationales: Theorie ou sociologie?' *Trimestre du Monde*, 3e trimestre 1994 pp.35-46 pp.39-40

¹⁴ Cited by Michael Doyle, 'Thucydides: A realist?' in Richard Ned Lebow and Barry S. Strauss, *Hegemonic rivalry, from Thucydides to the Nuclear Age*, Westview Press 1991 pp.169-188, pp.170

في هذه الدراسة، ورغم التحفظ الذي ذكر اعلاه بخصوص مسألة التنبؤ، أوافق الرأي الذي يرى أنه لا يمكن تجاهل الفجوة بين ما طرحته النظرية الواقعية الجديدة (التي اعتبر أنصارها أنها النظرية في العلاقات الدولية) من سيناريوهات محتملة، وما حصل على أرض الواقع. هذه الفجوة لا يمكن إلا أن تمس من إمكانية النظرية الواقعية الجديدة في قراءة الواقع الجديد. هناك ثلاثة مواقف حول فشل التنبؤ، أو على الأقل الفشل في إمكانية ادخال الواقع الجديد ضمن الاطار النظري الذي تقترحه الواقعية الجديدة:

- ♦ إن فشل التنبؤ يعود إلى إهمال الجانب الأيديولوجي، الحرب الباردة لم تكن صراعا فقط بين قوى عظمى، إنما أيضاً بين نظم سياسية وايدولوجية مختلفة (جون غاديس، فرد هاليدي).
- ♦ إن فشل التنبؤ يعود الى المبالغة بقوة الإمبراطورية السوفييتية، فالعرب الباردة كانت صراعا بين قوى غير متساوية في المجال الاستراتيجي والاقتصادي (جون نجمان، وليم ويلهورت).
- ♦ إن فشل التنبؤ يعود إلى تجاهل البنية المعقدة، أو البنية التاريخية للعلاقات الدولية) والتي تركز على العلاقة بين الدولة والقوى الاجتماعية داخل الامبراطورية السوفييتية) (جيمس روزنو، ايمانويل فالرشطاين وروبرت كوكس).

في هذا الفصل، سأنتقل أولاً من تحديد الأحداث التاريخية للواقعية الجديدة، التي أراد أنصارها أن تكون تعليلاً على مستوى بنية العلاقات الدولية، و فقط على مستوى البنية (تهميش مستوى الوحدة-الدولة)، وأن تكون لا أيديولوجية ولا معيارية على اعتبار أنها واقعية وحيادية (كأن الواقعية هي معيار العلمية).

١- الواقعية الجديدة على المحك

فكرة «نظام دولي» هي فكرة تم تطويرها على يد مفكرين واقعيين مثل هانس مورغانتاو في الفترة التاريخية ما بين الحربين¹⁵. اعتقد هؤلاء بأن تركيبة أو بنية معينة للنظام قد تساهم في الأمن الجماعي أو السلم الدولي. حسب النظرية الواقعية، تتميز بنية النظام الدولي أولاً بالفوضوية، والتي تعني انعدام وجود وحدة سياسية تستطيع فرض سلطتها على كل الوحدات الأخرى. لا يحق لأية دولة أن تأمر الدول الأخرى، ولا يوجد دولة مضطرة للانصياع لهذا الأمر. في نظام فوضوي، تهتم كل وحدة سياسية قبل كل شيء باستمراريتها وبامنها (الانانية المقدسة وفقاً للجنرال ديغول). يقود تنافس الوحدات إلى سلوك متكرر، مثل ميل الدول إلى صد أو موازنة القوة أو التهديد بالقوة.

هذا يقودنا إلى الميزة الثانية وهي التراتبية بين الوحدات، أو القطبية، والتي تعني موقع الدولة نسبة إلى الدول الأخرى. لكن بالنسبة لأنصار النظرية الواقعية، يبقى دور النظام محدوداً، فهو لا يشكل إلا الشروط التي في إطارها تمثل «الطبيعة الإنسانية» السبب الأخير للصراع. ما تتميز به الطبيعة الإنسانية هو الأنانية والبحث المستمر وراء المجد والقوة.

منذ ١٩٧٩، عرفت نظرية العلاقات الدولية تطوراً آخر، ذا توجه «بنيوي» تمثل في النظرية الواقعية الجديدة. في نظر كينيث ولترز، من أجل تحليل العلاقات الدولية علينا التنظير على مستوى النظام الدولي. «تزعّم النظرية الواقعية الجديدة ان السياسة الدولية تُفهم فقط إذا ما تم إضافة آثار البنية الدولية إلى تعليقات الواقعية التقليدية التي تهتم بمستوى الوحدة. بشكل عام، تعيد الواقعية الجديدة النظر في فهم العلاقة السببية بين علاقة الوحدات التبادلية والنتائج الدولية (...). إذ لا بد من الاعتقاد أن بعض الأسباب للنتائج الدولية تتواجد في مستوى العلاقة التبادلية بين الوحدات¹⁶».

¹⁵ Martin Hollis and Steve Smith, Explaining and understanding the international relations, 1990, Oxford, Clarendon Press, pp.97

¹⁶ Kenneth Waltz, Realist thought and Neorealist theory, Journal of International Affairs, vol.44 N0.1 spring/summer 1990 p.34

وفقا للنظرية الواقعية الجديدة، لا ترتبط مسألة السلم والحرب بميزات اللاعبين (نظام ديموقراطي، نظام دكتاتوري)، إنما بالقيود البنوية التي تحدد الإطار الاستراتيجي الذي في داخله يتفاعل ويتبادل اللاعبون. كما في النظرية الاقتصادية، التركيز هو على بنية السوق التي تنشط في داخلها الشركات، وليس على ميزات هذه الشركات التي تبحث دائما عن زيادة أرباحها. كذلك على الساحة الدولية، تعمل الدول في إطار الفوضوية في محاولة دائمة لضمان استمراريتها واستقرارها. تشير القيود البنوية إلى المبدأ النظامي (الفوضوية)، إلى توزيع القوة الدولية، وإلى عدم التمايز الوظيفي بين الدول. تمثل هذه الرؤية رؤية للبنية ترتكز على الموقع positional -موقع كل دولة من القوة الدولية- قابلة للتطبيق في كل مرحلة تاريخية.

في بناء نظرية معينة من المهم التأكيد على ماذا نريد تعليقه، وكينيث وولتز يؤكد بأن نظريته هدفت إلى تحليل، أولاً وقبل كل شيء، «السلم الطويل» أو الاستقرار الذي ميز العلاقات الدولية بعد الحرب الباردة، وبالتحديد في الجزء الشمالي من المعمورة. أهتم هذا الخبير ببنية العلاقات الدولية، وليس بسياسة خارجية لدولة ما. وفقا لنظريته، بنية العلاقات الدولية، والتي تتكون من العلاقات التبادلية للدول، تشتت، وتحدد، بشكل كبير سلوك الدول. مساهمة كينيث وولتز تكمن في اضافة علاقة سببية جديدة، من البنية إلى الدولة، إلى جانب تلك التي تأخذ اتجاه، من الدولة إلى البنية. السببية التي تحدث عنها هي كالتالي: بنية العلاقات الدولية < نظام الاتكال الذاتي¹⁷ self help > استراتيجية توازن القوى، أو التحالف، مع الضعيف لصد القوي. هذه الاستراتيجية هي إحدى التنبؤات الإمبريقية الواضحة للنظرية الواقعية الجديدة. هذه الاستراتيجية تشتت نظاما فوضويا ووجود وحدات تتمسك باستمراريتها في البقاء. إذن، سلوك الدولة على الساحة الدولية يخضع لقيود النظام الفوضوي، الاتكال الذاتي، والتوازن.

¹⁷ نقصد بالاتكال الذاتي قدرة الدولة بخصوص امكانية استخدامها لمصادرها من اجل صد او السيطرة على عمل الدول الاخرى. الهدف الاول للدولة هو اهتمامها بذاتها.

١, ١- تعليل «السلم الطويل» (الحرب الباردة)

The longest peace yet known rested on two pillars: bipolarity and nuclear¹⁸

تعليل الحرب الباردة وفقاً لكيث ولترز يرتكز على نقطتين:

- ♦ ثنائية القطبية: سند أساسي للحرب الباردة
- ♦ الثورة النووية

١, ١-١ ثنائية القطبية، سند أساسي للحرب الباردة

ركز منظر الواقعية الجديدة على سمة وحيدة للدولة وهي موقعها في النظام الدولي. الاختلاف المهم بين الدول هو موقع الدول في العلاقات الدولية. التنافس بين الدول هو على التموقع داخل النظام الدولي، أي التنافس من أجل تقليل حجم الخسائر وتحسين القدرات الذاتية نسبة إلى الآخرين. هذه هي مسألة القطبية، والتي تشير إلى عدد الدول القوية المستقلة وإلى علاقاتها التبادلية. في سنوات الستينيات، كان السؤال المهم أن أية بنية، ثنائية أو متعددة القطبية، هي عامل استقرار. في إجابته على هذا السؤال، اعتبر هانس مورغانتاو أن ثنائية القطبية هي آلية ذات إمكانيات، قد تكون شيئاً جيداً جديداً أو شيئاً سيئاً لا سابق له. كينيث ولترز ذهب أبعد من ذلك حين اعتبر أن ثنائية القطبية قادرة على إنتاج نظام دولي أكثر استقراراً. ثنائية القطبية هي السبب الأساسي لانعدام حرب بين الدوليتين العظمتين.

المبدأ المنظم للنظام الدولي هو مبدأ الفوضوية. فهو يشير إلى الواقع الدولي الذي يفرض على الدول بأن تبحث عن مصالحها الذاتية بكل الوسائل المتاحة لها. هذا يذكرنا بفكرة «الوضع الطبيعي» عند الفيلسوف الانجليزي، توماس هوبس، حيث تتضمن فكرة «حرية كاملة ومطلقة»¹⁹

¹⁸ Kenneth Waltz, The emerging structure of international politics, International Security, Vol. 18 N0.2 Fall 1993 pp.44-79, pp.44

¹⁹ Pasquale Pasquino, Thomas Hobbes, la condition naturelle de l'humanité, Revue Française de Science Politique, vol.44 N0.2 1994 pp.294-307

بالإضافة إلى إنعدام سلطة، انضباط، الاحتكام إلى العقل، الأمن والسلم²⁰. في نظر كينيث وولتز، الوضع الفوضوي هو شيء دائم. في حالة تم تكوينه، فانه من الصعب تغييره على يد الوحدات. «على الرغم من التغييرات التي تحدث باستمرار في العلاقات بين الأمم، تبقى بنية العلاقات الدولية فوضوية. تقوم كل دولة بتدبير أمورها، مع أو دون التعاون مع الآخرين. يهتم رؤساء الدول ومعاونيهم بالحفاظ على، أو تحسين، موقعهم نسبة إلى موقع الآخرين»²¹.

هنا، يأخذ كينيث وولتز النموذج الاقتصادي حيث أن اللاعبين الذين خلقوا السوق أصبحوا بدورهم مخلوقات هذا السوق الذي صنوه من خلال فعاليتهم الاقتصادية، وانطلاقاً من هذا النموذج الاقتصادي، يجب الاهتمام أقل بشخصية اللاعبين أو الشركات، من طبيعة السوق الذي تعمل به هذه الشركات.

أمام الوضع الفوضوي الدولي نجد ميل لتراتبية الدول، أو ميل لتوزيع القوة الدولية بين عدد صغير بين الدول القادرة على إدارة وتنظيم الفوضوية الدولية. الاختلاف بين الدول هو في موقعها في العلاقات الدولية، والاختلاف في النظم الدولية هو في توزيع القوة بين الدول. في نظر جون ميرشهايمر فإن للفوضوية نتيجتين رئيسيتين. أولاً، هناك مكان صغير جداً للثقة بين الدول، وثانياً، على كل دولة أن تضمن استمراريتها لأنه لا يوجد لاعب آخر ليقوم بذلك. كل الدول الأخرى قد تشكل تهديداً لها، ولا يوجد مؤسسة دولية بقدرتها فرض النظام ومعاينة مرتكبي أعمال عدوانية من الدول القوية²².

²⁰ إذا كان هناك من يفسر الوضع الطبيعي على أنه حرب الكل ضد الكل فان جون ميرشهايمر يعتقد ان الوضع الطبيعي يشير الى امكانية الحرب والى التنافس الامني. ما يميز العلاقات الدولية هي ندرة الامن والتنافس الامني.

John Mearsheimer, 'The false promise of international institutions' International Security Winter 1994/5 Vol.19 N0.3 pp.5-49

²¹ Kenneth Waltz, ibid, 1993, pp.59

²² John J.Mearsheimer, Back to the Future: instability in Europe after the Cold War, International Security, summer 1990 vol.15 N0.1 pp.2-56 pp.12

الفوضوية تقف وراء ندرة الأمن على الساحة الدولية. في ظل الفوضوية، تبحث الدول عن ضمان استمراريته من خلال زيادة قوتها نسبة إلى الدول الأخرى. يقارن ميرشهايمر بين نظام اقتصادي يتميز بأن الهدف الرئيسي للاعبين فيه هو البحث عن الازدهار، والنظام السياسي حيث الهدف الأساسي هو ضمان استمراريته. وفي حالة التعارض بين النظامين فالاعتبارات السياسية تأخذ الأولوية لأن ضمان البقاء والاستمرارية هو الهدف الأعلى للدولة.

يعتقد انصار الواقعية الجديدة أن الحرب قد تندلع إذا لم يكن هناك عنصر بنيوي يمنع ذلك. إنعدام حرب بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة يعود، إذن، في نظر هؤلاء إلى البنية الثنائية للنظام الدولي. النظام الثنائي ميال أكثر من النظام المتعدد إلى الاستقرار، وذلك لثلاثة أسباب: عدد النزاعات بين الدول الكبرى هو صفر حتى في فترة الإزمات الكبرى بين ١٩٤٥-١٩٦٣، استراتيجية الردع بسيطة، حيث أن أي عدم توازن في القوة يمكن ملاحظته، عملية الردع في نظام متعدد القوى صعبة لأن الدول قد تفسر بشكل غير صحيح قوة التحالفات، بينما في نظام ثنائي فالدول الكبرى تركز على قوتها الذاتية والتحالفات أقل أهمية²³.

عند وولتز وميرشهايمر، النظرية هي بنيوية: الخروج للحرب بين الدول هو أمر خاص بالنظام الدولي حيث القطبية هي السمة البنيوية للنظام.

١,١,٢ الثورة النووية

كان الأمريكيون أول من طور سلاحاً نووياً، فقد اتخذ قرار بخصوص ذلك منذ عام ١٩٤١ على يد الرئيس فرانكلين روزفلت خوفاً من تقدم الماني في هذا المجال. في عام ١٩٤٩، فجر السوفييت أول قنبلة ذرية، ومنذ ذلك الحين لم تتوقف الدولتين العظمتين عن سباق التسلح في المجال النووي حتى فترة ميخائيل غورباتشوف وانتهاء الاتحاد السوفييتي.

²³ John J. Mearsheimer, *ibid*, 1990 pp.14-16

لقد حصل تطور في موقف كينيث ولترز من السلاح النووي. ففي البداية عد أن نظام ثنائية القطبية دون السلاح النووي لا يختلف عن نفس النظام الذي يملك سلاحا نوويا. السلاح النووي والذي يعد عنصراً من البنية الداخلية العسكرية للدولة، ليس له دور اساسي في «السلم الطويل». لكن في مقالاته الاخيرة، نجد اعترافاً من قبل كينيث ولترز باهمية السلاح النووي ودوره في الاستقرار بين الدولتين العظميتين. هذا يمثل اعتراف بأن تغييراً على مستوى الوحدة له أثر على مستوى النظام. نلاحظ هنا تراجع معين عن تعليل الميل للحرب عند الدول من منطلق البنية أو بالتحديد القطبية.

الى ماذا يعود هذا التراجع؟ هل يعود الى استنتاج بسيط وهو أنه كلما أصبح السلاح النووي مدمراً أكثر كلما أصبح أقل استعمالاً؟

حسب مؤرخ العلاقات الدولية جون غاديس، المثير للاستغراب هو أن التجديد في التقنية العسكرية يكون لأول مرة ليس بعامل محفز لبدء نزاع مسلح، بل عامل استقرار وسلم. خلق السلاح النووي نوع جديد من العقلانية التي تدفع باتجاه تجاوز الاختلاف الثقافي، الايديولوجي، التاريخي، والنفسي، الذي كان وراء الصراع بين الدول. تتلخص هذه العقلانية بأنه كلما عظمت القدرة التدميرية للسلاح النووي كلما أصبحت الحرب أمراً مرفوضاً وفكرة بالية. يشكل السلاح النووي، بهذا المعنى، ثورة تفسر السلم الطويل بين الدول العظمى بين الأعوام ١٩٤٥-١٩٨٩. يدفع السلاح النووي الى الحذر حيث أصبح الربح المتوقع من الحرب قليل وتكلفة الحرب عالية.

«في العلاقات الدولية، يكتب كينيث ولترز، تبقى القوة الحكم الاخير، وتتميز الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، عن باقي الدول، من خلال القدرة على استغلال التقنية العسكرية على مستوى يمتد إلى ما يسمح به العلم²⁴». إذن، كيف يمكن تعليل دخول الدولتين العظميين في فترة ارتقاء وتقارب عميق، تم تدشينه في ريكيافيك (عاصمة ايسلاند) في

²⁴ Cited by Richerd Ned Lebow, ibid, 1994, pp.259

عام ١٩٨٦؟ هل حصل أي تغيير في ثنائية القطبية، مع العلم أن روسيا، ما بعد المرحلة السوفييتية، تملك كل القدرات لشن حرب نووية؟

٢, ١- انكماش الامبراطورية السوفييتية

حسب كينيث ولتز، البنية ثنائية القطبية للنظام الدولي بعد عام ١٩٤٥ تشير إلى موقع الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وتعلل لماذا التنافس بينهما لا يمكن أن يكون إيجابياً. لقد اعتقد الخبير الأمريكي إن البنية ثنائية القطبية هي أكثر استقراراً من البنية متعددة القطبية، وبالنتيجة إن الحرب الباردة لا يمكن أن تنتهي إلا إذا سمحت هذه البنية بذلك.

لم يعتقد ولتز أن الأحداث ١٩٨٧-١٩٨٩ أساسية لأن «ثنائية القطبية مستمرة، لكن مع تعديل شكلي»²⁵، وهذا يعود إلى القدرة النووية السوفييتية. في نظره، مسألة توزيع ونوعية القوة تحدد دائماً مسألة السلم والحرب.

ويدعم ايتان كابشتاين²⁶ بان الواقعية الجديدة ما زالت، ورغم محدوديتها، تساهم في فهمنا للعلاقات الدولية. فهي تشكل نقطة الانطلاق لفهم نتائج العلاقات الدولية لأنها تركز على النظام والوحدة (الداخلي والخارجي). هذا ما تؤكد عليه أيضاً اطروحات جون لويس غاديس (ثنائية القطبية + اختلاف في الجاذبية الايديولوجية، مورفولوجية القوة الدولية)، وفيل وليم (ثنائية القطبية + تراجع في القوة الاقتصادية السوفييتية).

تقترح اجتهادات المؤرخ جون لويس غاديس²⁷ «نسخة تاريخية» للنظرية

²⁵ Kenneth Waltz, *ibid*, 1993, pp.59

²⁶ Ethan Kapstein, 'Is realism dead? The domestic sources of international politics' *International Organization*, Autumn 1995 vol.49 N0.4 pp.751-774

²⁷ John Lewis Gaddis, 'International Relation Theory and the End of the Cold War' *International Security* vol.17 N0.3 winter 1992\93 pp.5-58 pp.53. And, John Lewis Gaddis, 'History, Theory and common ground' *International Security* vol.22, N0.1 summer 1997 pp.75-85 pp.83

الواقعية الجديدة، من خلال التحليل المورفولوجي للقوة الدولية والاختلاف بين القوة الأمريكية والقوة السوفييتية، وبالأخص فيما يتعلق بالجابضية الأيدولوجية لكل من هذه القوى. بينما ينطلق العالم السياسي، فيل وليم²⁸، من النظرية الواقعية الجديدة في محاولة لتعليل التوزيع الجديد للقوة الدولية، والتي أصبحت تعرف اقتصادياً أكثر منها عسكرياً. اعتقد هذا العالم السياسي أنه، ورغم التساوي النووي، جرى تغيير بنيوي في العلاقات الدولية منذ الثمانينات، والذي يستطيع أن يعلل التحول في المعضلة الأمنية الخاصة بنظام فوضوي وثنائي، والدخول في فترة ارتقاء عميق بين الدولتين العظميين. التعليل الذي يقترحه يجمع بين تغيير في البنية للعلاقات الدولية وتراجع اقتصادي للقوة السوفييتية. في سنوات الثمانينات، كان هناك صعود لقوى جديدة مثل اليابان، ألمانيا، والصين، في حين عرفت روسيا السوفييتية تراجعاً. يشير الكاتب إلى ما اعتاد ميخائيل غورباتشوف ترديده وهو أن الاتحاد السوفييتي محاصر باقتصاديات متطورة، وليس بجيوش لا تقهر. يستعين وليم باجتهادات المؤرخ جون كيندي وباطروحته حول تراجع القوة الأمريكية.

انتقد جون لويس غاديس الواقعية ككل ليعود ويؤكد على رؤية واقعية جديدة، لكن بصيغة تاريخية. أما فيل وليم فيرى أنه لا يوجد أية مشكلة في رؤية تجمع بين الواقعية الجديدة وتيار آخر واقعي يشدد على القوة الاقتصادية، وليس على القوة العسكرية. العلاقة بين القوة الاقتصادية والقوة العسكرية سنتحدث عنها فيما بعد، لكن لا بد، أولاً، من توضيح العلاقة بين الواقعية والواقعية الجديدة. هنا نجد موقفين:

١. الواقعية الجديدة هي مجرد تنوع داخل برنامج أبحاث واسع وهو الواقعية.

٢. الواقعية الجديدة هي أكثر من ذلك. الموقف الأول عبر عنه جون جاك روش حيث اعتبر أن مؤسس الواقعية، هانس مورغانتاو وطمح، وفقاً لكلماته، لتأسيس «علم العلاقات الدولية»

²⁸ Phil William, US-Soviet relations: beyond the cold war?, International Affairs, Vol.65, N0.2 spring 1989, pp.273-288

من خلال قناعته بأن البحث عن القوة هو أمر مرتبط بالطبيعة الانسانية. هذا ما يؤكد خبير في نظرية العلاقات الدولية جون جاك روش الذي يرى أن موقف مورغانتاو كان غامضاً. «هانس مورغانتاو- كما بسكال- اعتاد العودة الى أنف كليوباترا كتحد لكل نظرية شكلية شيدت على شكل تعميمات بخصوص مستقبل العالم انطلاقاً من ملاحظات بسيطة. وصفت مقاربه إذن تطبيق تفسيري بواسطته اقترح تفسير الاحداث انطلاقاً من قوانين موضوعية ترتبط بالطبيعة. فيما بعد، أظهر أتباعه طموحاً أكبر ولجأوا للأداة البنيوية من أجل بناء خطط تفسيرية للعالم ذات ميل عمومي»²⁹.

بالنسبة للموقف الثاني، إن الواقعية الجديدة هي أكثر من مجرد تنوع في برنامج أبحاث واسع، الواقعية، وهذا موقف علماء السياسة، ري روزلوفسكي وفردريخ كراتشويل³⁰. فالواقعية الجديدة تطمح إلى دمج التعليل البنيوي الذي سيطر في العلوم الاجتماعية في سنوات السبعينيات، بينما تميزت الواقعية الكلاسيكية في تأكيدها على ما هو جائز وغير قابل للتنبؤ. حسب هؤلاء، الواقعية الجديدة تتميز عن الواقعية من خلال طموحها بأن تكون نظرية افتراضية-إستنتاجية، كما في العلوم الدقيقة، قابلة للتطبيق. في نظر الكاتبان، الادعاء التاريخي بأن البنية الدولية هي دائماً فوضوية يمنع الواقعيين الجدد من رؤية التغير المهم في احداث ١٩٨٩، ومن الأخذ بالاعتبار التنازلات أحادية الجانب من قبل القيادة السوفييتية، اللاعب الرئيسي في العلاقات الدولية، وبالنتيجة التحول في النظام الدولي.

ما سبق يظهر أن النزعة أو الطموح الذي تمثله الواقعية الجديدة كان ربما موجوداً، لكن ليس بوضوح، في الواقعية الكلاسيكية، لهذا يمكن

²⁹ Jean-Jacques Roche, Ibid, 1994, pp.40

³⁰ Rey Roslowski and Friedrich Kratchwil, 'Understanding change in international politics: The Soviet empire's demise and the international system' International Organization, Vol.48 N0.2 Spring 1994 pp.215-247

اعتبار الواقعية الجديدة امتدادا للواقعية الكلاسيكية. لكن الواقعية الكلاسيكية في تركيزها على الإطار التاريخي، أو رفضها للفصل بين البنية واللاعب، تجد لها امتدادا آخر مع ما يسميه ستيفان بروكس «الواقعية ما بعد الكلاسيكية»، ونجدها عند مختصين مثل وليم وهلفورث وجون نجمان. الأول أهتم بالإطار التاريخي للتغير في علاقات القوة، إذ اعتبر أن هذا التغير لم يحصل في الثمانينات وإنما ميز العلاقات الأمريكية السوفييتية منذ عام ١٩٤٥ وحتى ١٩٨٩. فالصراع كان غير متساو بين الولايات المتحدة كدولة هيمنة Hegemonic State والاتحاد السوفييتي كدولة تريد تغيير علاقات القوة Revisionist State. أما المختص الثاني فحاول تجاوز رؤية البنية للواقعية الجديدة، والتي تنطلق من الفصل بين القيود والوحدات-الدول، البنية واللاعب، من خلال استخدام مصطلح structuration «عملية بناء البنية» عند عالم الاجتماع الانجليزي انطوني غيدنز، والتي لا تفصل بين اللاعب والبنية.

٢- من الواقعية الجديدة الى الواقعية ما بعد التقليدية

الموقف الذي يعتقد أن إهمال الجانب الأيدولوجي كان السبب وراء فشل توقع الأحداث التاريخية التي ادت الى نهاية الامبراطورية السوفييتية، هو موقف ليبرالي، يعبر عنه المؤرخ الأمريكي جون لويس غاديس الذي ينطلق من مصطلح القوة، ومن تحفظ الواقعيين الجدد للتعاطي مع مسألة القوة الدولية، وذلك بسبب الاهتمام بما يسمى Theoretical Parsimony (تعليل أكثر ما يمكن من الظواهر السياسية بواسطة أقل ما يمكن من العوامل).

في نظر هؤلاء، تبحث الدول عن ضمان استمراريتها في بيئة فوضوية، وليس عن زيادة قوتها. كل نظرية تريد توقع عمل النظام الدولي، عليها أن تركز على سمات النظام ذاته، على توزيع القوة الدولية، وعلى الميزة الفوضوية للعلاقات الدولية. يقترح جون لويس غاديس فكرة «تنوع القوة» بدل فكرة «توزيع القوة»، فالقوة متعددة الأشكال (التحليل المورفولوجي للقوة الدولية). يعتبر هذا المؤرخ أن الحرب الباردة كانت

ستنتهي منذ سنوات الستينات، لكن، وبسبب السلاح النووي، لم تظهر حقيقة الامبراطورية السوفييتية التي لم تكن لإقوة أحادية الطابع ذات تركيبة عسكرية صناعية. وهذا يفسر أيضا سبب انهيارها.

هذا الموقف يجمع بين ما يدعمه المفكر الفرنسي كاسترو ياديس³¹، ومنذ السبعينات، حول الإمبراطورية السوفييتية، باعتبارها كتل عسكري صناعي، وانتقادات مفكرين شرق أوروبيين مثل جيلاس³² وغيره حول همجية الجيش الأحمر في المناطق التي دخلها في فترة الحرب العالمية الثانية، وذلك من خلال مصطلح «تنوع القوة».

في هذا الجزء، سنتناول النقد الليبرالي للواقعية، وفيما بعد سنتطرق إلى نظرية دولة الهيمنة والتوجه الجيوسياسي الذي يرفض الفصل بين البنية واللاعب.

١, ٢- أهمية الجانب الأيديولوجي: اختلاف في طبيعة الامبراطورية الامريكية والسوفييتية (التحليل المورفولوجي للقوة الدولية: نسخة تاريخية للواقعية الجديدة)

يرى جون لويس غاديس أن الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي لم يكن إلاحتمياً ومتوقعاً بسبب عوامل تواجدت ما بعد الأفراد والايديولوجيات. أسباب الحرب الباردة هي أسباب موضوعية تشير أولاً إلى وجود دولتين عظميين إنبتقتا من الحرب العالمية الثانية، وثانياً إلى التطور التاريخي للسياسة الامريكية والسوفييتية. سيطر كل طرف على نصف المعمورة، وتصارعا كما تصارعت قوى تنافسية من قبلهما في تاريخ الدول الاوروبية. الجغرافية، الديموغرافية، والتقاليد السياسية المتناقضة للدولتين العظميين أدت إلى نتيجة الحرب الباردة، لكن يبقى أن هذه الحرب هي غير ممكنة دون وجود ستالين. الصراع

³¹ Cornelius Castoriadis, la societe imaginaire, Paris Christian Bourgeois 1990
 _____, Devant la guerre, Paris, Fayard, 1981

³² Milovan Djilas, Ecrits Politiques, Paris, Pierre Belfond, 1982

بين الدولتين يعود إلى القوة التي يمتلكها كل طرف، وقد يستمر الصراع دون الاعتبارات الأيدولوجية لكن هذا الصراع أخذ حدية بفضل ستالين. إذا رأَت الديمقراطية الغربية أن الأمن هو أمر جماعي فإن ستالين أعتبر الأمن لا يمكن تحقيقه إلا من خلال التهديد والتصفية للأعداء. كانت سياسته الخارجية امتداداً لسياسته الداخلية. مفهوم ستالين للأمن يقترب من اللعبة التي يعتبر فيها ما يربحه طرف هو ما يخسره الطرف الآخر (Zero-sum game). هنا، يتفق جون لويس غاديس مع فردريخ كراتشويل الذي يعتبر أن الحرب الباردة أصبحت واقعا عندما تأكد البريطانيون والأمريكان من رغبة ستالين عدم الانضمام إلى الجهود المتعددة الأطراف من أجل استئصال أسباب الحرب: الأمم المتحدة، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي. وحسب جون غاديس، فمثلاً أنه من غير الممكن تصور المانيا النازية والحرب العالمية الثانية دون هتلر، فمن الصعب تصور الإتحاد السوفييتي والحرب الباردة دون ستالين. يكفي أن نتصور الأمور دون ستالين لنرى مدى مسؤوليته في الحرب الباردة.

يختلف جون لويس غاديس مع الواقعية الجديدة وفكرتها «طاولة البليارد» التي تهتم بموقع الكرة على الطاولة أكثر من الطابع الداخلي للكرة (توزيع القوة أكثر من طابع النظام السياسي والأيدولوجي)، فهو يرى أن الحرب الباردة هي نظام علاقات تبادلية لإمبراطوريتين من الصعب المقارنة بينهما. مجال نفوذ الإتحاد السوفييتي يختلف عن مجال نفوذ الإمبراطورية الأمريكية على المستوى الاقتصادي والأيدولوجي والخلقي. فهو يسمي الإتحاد السوفييتي «إمبراطورية قمعية» تعكس افضليات وممارسات رجل واحد فقط وهو ستالين. يذكر جون غاديس نقطة يتفق عليها الجميع وهي أطروحة ميلوفان جيلاس والتي تعتبر أن الخطاب الاشتراكي أخفى إمبريالية سوفييتية. الإتحاد السوفييتي أنزلق من الاشتراكية إلى رأسمالية الدولة مع بيروقراطية أرادت التوسع والسيطرة على البلدان الاشتراكية الأخرى. جيلاس هو منظر بروز البيروقراطية كطبقة اجتماعية جديدة مسئولة عن سياسة التوسع للقوة السوفييتية، وهو يعتقد أن التوسع الإمبريالي السوفييتي يمثل خيانة للينين وفكرته

حول المساواة بين الامم. ما يميز الإمبريالية السوفييتية، حسب جون لويس غاديس، هو الإرادة في بناء الإمبراطورية والوسائل القمعية التي استخدمت، والتبريرات اللإمبريالية التي قدمت. تكمن عبقرية ستالين في أنه نجح في فترة تميزت بلغة التحرر من الاستعمار والإمبريالية بتحقيق طموحات إمبريالية، حيث كل توسع للدولة السوفييتية برر على أنه توسع للاشتراكية وخطوة باتجاه الحرية الحقيقية والعدالة الاجتماعية.

بالنسبة للإمبريالية الأمريكية، فقد وصفها الكاتب بانها إمبريالية مرغوبة، تم استدعائها في أماكن توسعها، فالولايات المتحدة لم يكن لها إرادة ورغبة ببناء إمبراطورية، وخير مثال على ذلك هو أنها برزت كقوة عظمى قبل ١٩٤٥ لكنها بقيت على الحياد رغم أن اتفاقية فرساي وعصبة الأمم هي أفكار أمريكية. يرى جون غاديس أن الواقعية لا تستطيع تفسير وضع الولايات المتحدة في سنوات العشرينات، إذ تملك كل الوسائل من أجل السيطرة على الدول الأوروبية لكنها قررت العزلة. الفرق بين الإمبراطوريتين يبرز أيضاً في استقبال الجيوش الغربية، مقارنة مع الجيش الأحمر. كما أن فكرة الحلف الأطلسي هي فكرة أوروبية ودعوة من دول ضعيفة إلى دولة قوية لبناء إمبراطورية يكون لهم مكان فيها. لم يحكم الأمريكان وفقاً لمبدأ «فرق تسد» وإنما استخدموا الوسيلة الاقتصادية من أجل تليين النزعة القومية، وشجعوا حتى قيام قوة-قطب ثالث في أوروبا.

هنا أريد التوقف عند موقف فرد هاليدي³³ حيث يشدد على دور الضغوطات الخارجية في انهيار الإمبراطورية السوفييتية، ذات النظام السياسي والأيدولوجي المختلف، لكي تدخل في «نظام دولي متجانس» يشار إليه من خلال المصطلح الليبرالي الجديد «الاتكال المتبادل». لكن لا يمكن تجاهل الضغوطات التي مارسها الإتحاد السوفييتي، والتعامل مع القرن العشرين (منذ ١٩١٧-١٩٩١) وكأنه لم يكن، على

³³ Fred Halliday, 'The end of the Cold War and international relations: Some analytic and theoretical conclusions' in Ken Booth and Steve Smith, International Relations Theory, 1995, Polity Press pp.38-59

حد الفيلسوف الفرنسي جون بوديريارد. هذا يعني أن تبني الفكرة الأوروبية، وقبولها على يد الأمريكان، لا يعود الى الطبيعة الملائكية للإمبراطورية الأمريكية، بل إلى وضع جيوسياسي وأيدولوجي (منع توسع الثورة)، وإلى فكرة منع تطور «خاصرة لينة» في أوروبا قد تستغل على يد الثورة السوفييتية. أعتقد أن المؤرخ جون لويس غاديس يهمل بدوره الجانب الأيدولوجي، وبالتحديد تأثير الخطاب الاشتراكي على الوضع الداخلي للدول الغربية بما في ذلك الولايات المتحدة وعلى سياستها الخارجية. واستتباعاً، هل يمكن أن يختلف موقف مثقف عراقي اليوم من حضارة (همجية) المحتل الأمريكي عن موقف ميلوفان جيلاس؟ هل يختلف سلوك الجيش الأمريكي في العراق كثيراً عن سلوك الجيش الأحمر؟

أما في موضوع العزلة التي اختارتها الولايات المتحدة في فترة ما بين الحربين، فلا يمكن فهمها بمعزل عن عقيدة مونرو، والتي اعتبرت القارة الأمريكية منطقة نفوذ أمريكية على الدول الأوروبية عدم التدخل فيها، مقابل عدم تدخل الولايات المتحدة في الشؤون الأوروبية، بما في ذلك شؤون مستعمراتها. تطور السياسة الخارجية الأمريكية يفهم اليوم كتوسيع رقعة تطبيق لعقيدة مونرو إلى مناطق أخرى في العالم.

٢, ٢- المبالغة في تقدير القوة السوفييتية (نظرية دولة/ هيمنة وتوجه جيوسياسي)

الحرب الباردة لم تكن نظاماً ثنائياً القطبية إنما جزءاً لا يتجزأ من السلم الأمريكي Pax Americana. لقد كانت صراعا بين قوى غير متساوية. جيوسياسيا، شكلت الولايات المتحدة قوة مهيمنة لا تعرف تحد من قبل الاتحاد السوفييتي إلا بشكل ثانوي، وتصرفت الولايات المتحدة بشكل قوة مهيمنة على الساحة الدولية، فلم تتسامح مع أي توسع سوفييتي، حيث فُسر هذا بأنه تهديد للوضع القائم وللسيادة الأمريكية على القرار الدولي. السيادة الأمريكية انعكست في رد فعل مباشر أخذ شكل عقوبات اقتصادية وتجارية، ورد فعل غير

مباشر مثل ما حدث في أفغانستان. هنا يعد الاتحاد السوفييتي منافساً غير متساو مع الولايات المتحدة، لكنه استفاد من الوضع الجيوسياسي الذي كان قائماً. المبالغة في تقدير القوة السوفييتية هي التي تفسر المفاجأة الكبرى بالنسبة للحدث. هذه المفاجأة هي إذن نتيجة الوهم الذي اختلط بالواقع: صراع بين اطراف غير متساوية تم عرضه كصراع ثنائي القطبية ومتوازن، لاتماثلية جيوسياسية تم اخفائها من خلال خطاب ايديولوجي ذا طابع مانوي (Manichean): هم ونحن.

المختص وليم وهلفورث، الذي يعد من مؤيدي نظرية التنافس على الهيمنة لروبرت جيلبين، يؤكد على مصطلح القوة. فهو يرى أن الحرب الباردة تسببت بصعود «دولة تحد» (revisionist power) وهي الإتحاد السوفييتي، وانتهت مع تراجع، ومن ثم اختفاء، هذه القوة، والحرب الباردة مثلت نظاما جيوسياسيا تحت هيمنة امريكية. تراجع الإتحاد السوفييتي يؤكد على هرمية السياسة الدولية، وعلى إنها كانت فترة السلم الامريكية Pax Americana.

الحرب الباردة مثلت صراع بين «دولة هيمنة» و«دولة تحد». ويلم ووهلفورث يعتقد أن النظرية الواقعية لم تفقد الشرعية مع ما حصل في أوروبا الشرقية، فهي تستطيع تحليل ذلك. الواقعية هي غنية ومتنوعة ولا يمكن اختصارها في الواقعية البنيوية التي لا تتعاطى مع التغيير. لفهم النهاية المفاجأة والسلمية للحرب الباردة، يقترح الكاتب نظريات اخرى واقعية مثل نظرية توازن القوى، نظرية التنافس على الهيمنة، ونظرية تحول القوة. هذه النظريات تعلق ثلاثة عناصر وهي كالتالي:

أولاً- تقييم القوى على يد اصحاب القرار: كل نظرية بخصوص توازن القوى، والتي تريد تحليل سلوك الدول عليها توضيح الآلية التي بواسطتها يمكن ترجمة القدرات إلى افعال. هذه الآلية هي تقييم القوى على يد اللاعبين. من الصعب تقييم قوة دولة لأن هناك عوامل مادية وغير مادية.

ثانياً- دول تحد أكثر من دول هيمنة، تميل إلى الانكماش والإصلاح وليس لتبني حرب وقائية. في سنوات الثمانينات، الإتحاد السوفييتي كان دولة تحد في مرحلة تراجع وتدهور. نظرية التنافس على الهيمنة لا تقوم بتنبؤات حتمية بالنسبة لردود الدول الفردية عندما تكون في حالة تراجع، لكنها تقترح أن الدول المهيمنة تميل إلى رد فعل عنيف في حالة تراجعها، أكثر من الدول التي تقوم بتحد الهيمنة القائمة. دولة هيمنة مستفيدة من الوضع القائم، ستمسك بهذا الوضع، بينما دولة تحد غير مستفيدة من الوضع القائم ستميل إلى تقديم تضحيات أقل للحفاظ على الوضع القائم.

ثالثاً- انهيار سريع أو حرب داخلية في دولة تحد، يمثلان عوامل عدم استقرار لكن أقل تأثيراً من انهيار أو اضطرابات داخل دولة مهيمنة. وإذا قبلنا أن الإتحاد السوفييتي كان خلف الولايات المتحدة من ناحية القوة، فيجب أن نعتبر أن انهياره أخف تأثيراً من انهيار الولايات المتحدة. بخلاف أنصار الواقعية البنوية، أو جون لويس غاديس، الذين يعتقدون أن الحرب الباردة هي تنافس بين قطبين متشابهين، أنصار نظرية التنافس على الهيمنة والانتقال في القوة الدولية يرون أن الإتحاد السوفييتي كان له موقع دولي مختلف يفسر التغير السلمي الذي حدث في أواخر الثمانينات.

الانتقاد الأهم للواقعية هو أنها في تركيزها على الانهيار النسبي للقوة فهي لم تأخذ بالاعتبار الثورة الغورباتشوفية». بالنسبة لوليم وهلفورت هذا الانتقاد يمكن تجاوزه إذا اعتبرنا الانهيار النسبي كما أدركته، أو استوعبته، القيادة السوفييتية *relative decline perceived* الذي يشكل أساس تبني البروسترويكا والفكر الجديد. الانهيار كان العبء الذي فرضه موقع الإتحاد السوفييتي الدولي. هناك عاملين يقفان وراء الإصلاح السوفييتي في المنتصف الثاني للثمانينات، انهيار النموذج الاقتصادي السوفييتي مقابل اقتصاد الغرب الصاعد، والموقف الاستراتيجي للإتحاد السوفييتي. اعتبر المحللون السوفييت أن الوضع خطر وبشكل مضاعف، ويتطلب إعادة نظر في قياس القوة الدولية، حيث يتم تبديل معايير الصناعة الثقيلة واستهلاك الطاقة بمعايير التقنية

العالية والنجاعة. باختصار، في نظر وليم وهلفورت، موقع الامبراطورية السوفييتية كدولة تحد هو عامل يشكل اطار تحليل مهم لردود الاتحاد السوفييتي على انهيار وتراجع قدراته³⁴.

في نظر جان نيمان³⁵، يوجب الأخذ بالاعتبار البيئة الجيوسياسية للمواجهة السوفييتية الامريكية والتي مثلت نظاما جيوسياسيا خدم مصالح الطرفين أكثر منه صراعا. لم تقتصر الحرب الباردة على سلوك القوتين العظميين لأنها تضمنت بيئة جيوسياسية ملائمة. في سنوات الثمانينات، عرفت هذه البيئة بعض التغيرات حيث تم تحديها من قبل قوى اقتصادية جديدة مثل اليابان وأوروبا الاتحادية، لكن أيضاً من قبل دول محيط مثل فيتنام وافغانستان. حسب الخبير بدراسة الحرب الباردة يستوجب أخذ نقطتين أساسيتين. أولاً، تأثير سلوك الدولتين العظميين على البيئة الجيوسياسية، والتي تنعكس من خلال تدخلهن في الدول الاخرى، وهذا يسمح بالتوقف على مجال نفوذ كل قوة والتحقق من اولية الولايات المتحدة، ومن لامثالية الصراع الجيوسياسي بينها وبين الاتحاد السوفييتي. ثانياً، تأثير البيئة الجيوسياسية على سلوك الدولتين العظميين، وبالأخص تأثير الدول الاخرى على دينامية العلاقات بين هاتين القوتين، والذي تمثل في نقد وتدمير بنى الحرب الباردة. في نظره، هذا الجزء هو الجزء اللامكتوب من الحرب الباردة.

يعتقد جون نيمان، أن البيئة الجيوسياسية لا تقتصر على الدول الغربية إنما تضم أيضاً دول المحيط. وهو يعرف البيئة بمصطلحات سياسية واجتماعية حيث يستعير من هارولد ومارجريت سبروت مصطلح «ثلاثية بيئية» تتضمن، اللاعب، البيئة، والعلاقة بين اللاعب والبيئة، ومن أنطوني جيندز يستعير مصطلح عملية بناء البنية structuration. البيئة لا تفرض

³⁴ William Wohlforth, 'Realism and the end of the Cold War' International Security, Winter 1994\5 vol.19 n0. 3 pp.91-129 pp.111

³⁵ Jan Nijman, The geopolitics of power and conflict: superpowers in the international system 1945-1992, London and New York, Belhaven Press 1993

سلوك معين على اللاعب وإنما تحد من اختياراته. هارولد ومارجريت سبروت يسميا «النزعة السلوكية المعرفية» «cognitive Behaviouralism» عندما يرد الانسان على ما يحدث في بيئته وفقاً للشكل الذي يستوعب فيه هذه البيئة. عندما نتحدث عن الفرص أمام اللاعب، نتحدث عن اللاعب وعن البيئة، بمعنى قدرات اللاعب، لكن الإمكانيات والقيود التي تفرضها البيئة. عندما نتحدث عن الإرادية، فالاهتمام هو بالنواتج والأفضليات، وباستيعاب اللاعب للبيئة. مصطلح الحركة البنيوية يشير الى التبادلية بين الفعل (العملية) والبنية. صحيح أن اللاعب يجد ذاته مقيداً ببنى موجودة، لكن أفعاله قد تقود إلى تعديل في البنى وإلى إعادة إنتاج البنى. مقارنة جيوسياسية تتطلب إذن الانتباه إلى علاقة القوتين العظميين مع البيئة الجيوسياسية، حيث حاولتا فرض صراعهن على الدول الأخرى، لكن، وبنفس الوقت، في هذه البيئة، هناك قوى حاولت أن تعيد إنتاج، تعدل، أو ترفض، السيطرة الأمريكية السوفييتية.

ما ورد سابقاً يشير إلى أن الواقعية الجديدة ما هي إلا وهم براديجماتي على حد تعبير جون لويس مارتريس³⁶. فالواقعية ليست نظرية، إنما ناتج فهم للتجربة وللواقع السياسي. لضمان الاستقرار والاستمرار على الأمير أن يستخدم كل المصادر: القوة، العقل، والخداع. في نظر مارتريس، إدراك الفكر الواقعي يتطلب وضع اللاعب في الفترة التاريخية والإصغاء له في تصميم مصلحته كما يراها هو في لحظة محددة من التاريخ. لا يمكن فهم المصلحة خارج إطارها التاريخي، وخارج رؤية الأمير للأهداف التي رسمها، والتي حددت انطلاقاً من ثقافته، لكن أيضاً انطلاقاً من تحليل بروح باردة للوسائل المتوفرة لديه. الواقعية كفن سياسي تهتم بالإطار الثقافي والتاريخي، وبالتالي تقترب من الواقعية

³⁶ Jean-Louis Martres, De la necessite d'une theorie des relations internationales, l'illusion paradigmaticque, Annuaire Francais des Relations Internationales, 2003, vol.4

http://www.diplomatie.gouv.fr/fractions-france_830etudes-recherches_3119annuaire-francais-relations-internationales_3123afri-2003_8324html

ما بعد التقليدية في رفضها لفرضية الواقعية الجديدة» *ceteris paribus*: التركيز على عامل معين واعتبار أن باقي العوامل بقيت دون تأثير.

كذلك بالنسبة للعلاقة بين القوة الاقتصادية والقوة العسكرية، فهذا ينخرط ضمن الجدال داخل الواقعية بين الواقعية الجديدة و«الواقعية ما بعد التقليدية» كما يؤكد ستيفان بروكس³⁷. الاختلاف بين هذين التيارين يكمن في ثلاثة أمور: التعاطي مع الصراع الدولي، مع أهداف بعيدة الأمد وأهداف آنية، ومع القوة العسكرية والقدرة الاقتصادية. في نظر أنصار الواقعية الجديدة فإن إمكانية الصراع هي التي تحدد سلوك الدول في علاقاتها. «فالدول كما يدعى ميرشهايمر تكون نواياها حسنة مرة وخبثية مرة أخرى». بينما في نظر أنصار الواقعية ما بعد التقليدية فالانطلاق هو من احتمالية الصراع وتأثير عوامل أخرى غير توزيع القوة العسكرية بين الدول. كذلك، وفي مواجهة إمكانية الصراع، يركز أنصار الواقعية الجديدة على الأهداف الآنية دون الاكتراث بالأهداف بعيدة الأمد. وكما يشير عدد كبير من خبراء عملية اتخاذ القرار في السياسة الخارجية بأن هناك دائماً محاولة تسوية بين هذه الأهداف، وأنه ليس من السهل الخروج بتسوية مرضية. مثال على ذلك هو الخيار بين القوة العسكرية والقدرة الاقتصادية. القدرة الاقتصادية تنخرط ضمن استراتيجية تشدد على أهداف بعيدة الأمد. لا يهمل أنصار الواقعية الجديدة القدرة الاقتصادية، لكن توسيع تعريف المسألة الأمنية قد يهدد التماسك الداخلي المنطقي للواقعية الجديدة. الواقعية ما بعد التقليدية تستطيع من خلال رؤيتها للصراع الدولي توسيع تعريف القوة الدولية لتتضمن الجانب العسكري، الاقتصادي، والديموقراطي، والجغرافي. لهذا رأينا التركيز على الضغوطات الاقتصادية الدولية عند وليم وهلفورث، والاهتمام بتأثير الجغرافية على السياسة «الجيوستراتيجية» عند جون نيمان، وأيضاً هناك توسيع لمفهوم الأمن من خلال مصطلحات مثل، أمن مجتمعي وأمن إنساني، (المجتمع والفرد مرجعيات أساسية في تحليل مفهوم الأمن) (باري بوزان).

³⁷ Stephen G. Brooks, *Dueling Realisms, International Organizations*, 51, 3, Summer 1997 pp.445-477,

هذا الاختلاف داخل الواقعية يسمح كما يعتقد بروكس بتقارب بين الواقعية ما بعد التقليدية والنظريات الأخرى مثل الليبرالية والبنائية، بحيث تكون مكملة الواحدة للنظريات الأخرى. هذا التقارب عبر عنه جون نجمان أولاً في رفض فكرة الفصل بين البنية واللاعب التي تميز الواقعية الجديدة، فهناك ترابط بين وحدات التحليل هذه (مصطلح structuration) ورفض اختزال وحدة تحليل- اللاعب- في وحدة تحليل أخرى-البنية. كذلك في تركيزه على الثلاثية: اللاعب، اللاعبيين الآخرين، والبيئة، يقترب جون نجمان من التيار البنائي الذي يعتبر أن مصالح اللاعب تتطور انطلاقاً من الممارسة الاجتماعية داخل بنية معينة، بكلمات أخرى من خلال التبادل بين اللاعب واللاعبيين الآخرين والتبادل بينه وبين البيئة. يتفاعل اللاعب مع موضوعات ولاعبين آخرين انطلاقاً من المعنى الذي تحمله له هذه الموضوعات وهؤلاء اللاعبيين. هذا يذكرنا بما يدعّمه هيدلي بول: إن نظام الدول يتواجد ضمن مجتمع الدول، حيث يتضمن قيم ومعايير ومؤسسات مقبولة. المؤسسات تختلف عن المنظمات، مثل الأمم المتحدة، فهي عبارة عن «كيانات فكرية» cognitive entities» تحوي أفكاراً ورؤى يحملها اللاعبيين للعالم الذي يعيشون ويعملون فيه مثل السيادة، الدولة، القانون الدولي، الخ...

الفصل الثاني

II- العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة: البنية والهيمنة

يتضمن هذا الفصل مواقف تعيد هي أيضاً النظر في قراءة الحرب الباردة ونهايتها، لكن تختلف عن المواقف الواقعية بأنها تؤكد على دخولنا في مرحلة تاريخية جديدة في العلاقات الدولية، لا يمكن فهمها انطلاقاً من الأدوات التحليلية والمصطلحات التي توفرها الواقعية. التغيير الذي تمثلته نهاية الحرب الباردة جذري وعميق الى درجة المس بالعناصر الأساسية للنظام الدولي الذي تمثل اتفاقية وستفاليا ١٦٤٨ لحظة ولادته.

نرى ومن خلال الاستعانة باجتهادات الخبير، كاليفي هولستي³⁸، أن التغيير في بنية النظام الدولي قد يأخذ إما شكل إضافة مستوى آخر بجانب مستوى نظام الدولة، وإما شكل عملية دياكتيكية يتم فيها بناء الجديد على القديم.

التغيير، نعني الأول، والذي يشار إليه بمصطلح التعقد complexity نجد عند مختصي النظام الاقتصادي العالمي، وعند مختصي البراديغم ما بعد الدولي. المجموعة الأولى تنطلق من نظرية التبعية التي تم تطويرها في سنوات السبعينات، والمجموعة الثانية تركز على العلاقات العابرة للحدود القومية، وعلى ظاهرة العولمة كظاهرة جديدة تتميز بها فترة الثمانينات، وليس ظاهرة مرتبطة بالاقتصاد الرأسمالي الذي ولد على الأرض الأوروبية منذ القرن الخامس عشر. تحت تأثير الماركسية او الاكتشافات الجديدة في الفيزياء، تتميز هذه الانتقادات برؤية تاريخية -تهتم بالمدة الطويلة - وتعتبر أن التغييرات التي حصلت في اواخر

³⁸ K.J. Holsti, The problem of change in international relations theory, working paper N0.26 presented at the ISR-ECPR in Vienna, September 1998

الثمانينات عميقة لدرجة تتطلب التخلي عن مصطلح «نظام دولي»: العلاقات الدولية دخلت في مرحلة «معقدة» ولم يعد مصطلح «نظام دولي» قادر على تغطيتها.

التغير بمعناه كعملية دياكتيكية، نجده عند روبرت كوكس، أحد ممثلي النظرية النقدية في العلاقات الدولية. ينطلق روبرت كوكس من كتابات انطونيو غرامشي، والذي لا يتجاهل البنى التاريخية لكن باعتبارها تتكون جزئياً من وعي وفعل الافراد والمجموعات. يشير الجانب الديالكتيكي إلى أن الفعل الاجتماعي مقيد، ويتطور داخل بنى اجتماعية سائدة والتي تتبدل بدورها على يد فعل جماعي يسميه غرامشي «حرب المواقع» أو «حرب الحركة»³⁹. ما نشهده منذ نهاية الحرب الباردة هو ما يصفه غرامشي بالأزمة والتي تعرف من خلال أن القديم لم ينته أو يمت بعد والجديد لم ينجح في ولادته بعد، وبين هذا وذاك تتصاعد الوحوش⁴⁰. بعد نهاية الحرب الباردة، نرى مرجعيات قديمة لم تختف بعد ومرجعيات جديدة لم تنجح بأن تثبت وتستقر، ما خلق مرحلة من الصراعات المختلفة في الواقع وعلى الصعيد النظري والابستولوجي، حيث هناك أيضاً أزمة في النظرية والمصطلحات وتبدل في البراديجمات والمعايير.

المرحلة الحالية هي إذن مرحلة انتقالية تتمثل بإعادة نظر للحقل اللغوي والاصطلاحي، وإعادة تنظيم للهيمنة. يشير مصطلح الهيمنة الى القوة المادية، العسكرية، الاقتصادية، والديموغرافية، لكن أيضاً الى القوة المعنوية، سيطرة أفكار معينة، مثل الليبرالية الاقتصادية، والعولمة.

³⁹ حرب المواقع تشير الى انه في حالة وجود دولة قوية ومجتمع مدني قوي مثل الدول الأوروبية الغربية يكون مركز الصراع داخل المجتمع المدني وحرب الواقع تتطلب عملية بناء بطيئة للاسس الاجتماعية للجولة الجديدة. اما في حالة دولة قوية ومجتمع مدني ضعيف فمركز الصراع يكون على الدولة كما في وضع روسيا قبل ١٩١٧. حرب الحركة تشير الى سرعة التغيير والتي تتمثل في الاستيلاء على مؤسسات الدولة.

Robert Cox and T. Sinclair, *ibid*, 1996, pp.127

⁴⁰ Hugues Portelli, *Gramsci et le bloc historique*, PUF, Paris, 1972 pp.127

١. التغيير فى البنية: التعقد والانتقالية الديالكتيكية

قد ينتج تغيير فى البنية انطلاقاً من تغيير فى سلوك اللاعبين، بمعنى تغيير فى قيم وممارسات النخب القومية قد يقود إلى نتائج بنوية. لكن التغيير فى البنية قد يكون أيضاً ناتج عملية تعقد، بمعنى إضافة مستوى آخر أو ناتج انتقالية ديالكتيكية، بمعنى نشأة الجديد من القديم، وبمعنى التجديد مع استمرارية القديم وليس استبداله.

١، ١- تغيير فى البنية ناتج عن تغيير فى سلوك اللاعبين

تنظيم العلاقات الدولية لا يتضمن فقط مبدأى الفوضوية والهرمية، فالنظام الدولي الذي شيد انطلاقاً من ممارسات وتقاليد غربية يعكس أساساً معيناً، أخلاقى وثقافى، من أهم عناصره، احترام الحياة، الملكية، والكلمة التي اعطيت (Pacte Sunt Servanda). هذا ما يدعمه رى كوسلوفسكى وفريدريخ كراتشويل⁴¹ الذين يطالبان بالعودة إلى «العقل العملي»، كما ورد عند ارسطوطاليس الذي اعتبر الانسان بمثابة حيوان اجتماعى يتميز بقدرته على تقديم خطاب حكيم يشير إلى ما هو خير وما هو شر، إلى ما هو عادل وما هو غير عادل. السياسة ليست مجال لأمور أكيدة ترتكز على تحليل استنتاجى (deductive analysis)، إنما مجال للجدل بين أطروحة وأطروحة مضادة، صياغة عقلية (Reasonableness)، وليس حسابات عقلانية (Rationality). فى نظر الكاتبان، إن تغييراً جوهرياً فى العلاقات الدولية قد ينتج إذا قرر اللاعبون من خلال الممارسة تغيير القواعد والقيم المعيارية المنشئة للعلاقات التبادلية الدولية. بالإضافة إلى ذلك، إعادة إنتاج الممارسة للاعبين الدوليين يرتكز على إعادة إنتاج ممارسات اللاعبين الداخليين من أفراد ومجموعات. التغيير الأساسى فى العلاقات الدولية حصل عندما تغيرت الهوية والعقيدة عند اللاعبين الداخليين بشكل غيرت أيضاً القواعد والقيم المنشئة

⁴¹ Rey Koslowski and Freidrich Kratchowil, 'Understanding change in intenational politics: the Soviet empire's demise and the international system' International Orgaization, vol.48 N0.2 spring 1994 pp.215-247 pp.216

لممارستهم السياسية. الدولة هي عبارة عن مؤسسة (ممارسات تم تثبيتها وضبطها من خلال القيم) سماتها تتحدد من خلال عملية إعادة إنتاج لبعض من الممارسات. الدولة هي أكثر من نظام شكلي، أو شخصية اعتبارية، بل هي بالأساس مجموعة من الممارسات التي تم تثبيتها من خلال القيم على يد مجموعة من الأفراد تشكل نوعاً معيناً من الاتحاد السياسي. التطور التاريخي للدولة، كمؤسسة تنظيمية، أنها تقوم بتنظيم السياسة، تعلق ليس فقط التقسيم بين المجالين الداخلي والخارجي، بل، تعلق أيضاً، التحول في النظام الدولي كنتاج تغيير داخلي. يمثل صعود القومية نموذجاً لتحول جوهري في النظام الدولي نتج عن تغير في القيم المعيارية الداخلية والخارجية. إعادة صياغة السياسة في فرنسا، بعد الثورة الفرنسية، غير من الممارسات بين الأمم. هذه الممارسة هي التعبئة الشعبية العسكرية (lévée en masse).

الواقعية الجديدة لا يمكنها تعلق طبيعة وحجم التغير، لأنها لا تستطيع تعلق التنازلات أحادية الجانب للقيادة السوفييتية. ما حدث في الشرق أدى إلى تغيير في النظام الدولي من خلال تغيير في القواعد والمعايير التي تتحكم بهذا النظام. إعادة صياغة السياسة الداخلية، والتي ارتبطت بخطاب حقوق الإنسان والدمقرطة، هي التي أدت إلى تحول في النظام الدولي. من أهم التغيرات في البيئة الخارجية للاتحاد السوفييتي هي خطاب حماية حقوق الإنسان (اتفاقيات هلسنكي ١٩٧٥). منذ السبعينات ومصطلح حقوق الإنسان، وبشكل مستقل عن كل أيديولوجية اقتصادية، برز كتحد لشرعية النظم السلطوية مهما كان توجهها الاقتصادي. شرعية النظام السوفييتي ارتكزت على الادعاء بأن الاشتراكية أعلى من الرأسمالية. هذا الادعاء كان عليه أن يواجه تحد حقوق الإنسان. لا يمكن تجاهل الصلة الوثيقة بين مجموعات المعارضة للنظام السوفييتي واتفاقيات هلسنكي. في تشكوسلوفاكيا السابقة، مجموعة ٧٧، تأسست بعد سنة من دخول اتفاقيات هلسنكي حيز السريان. كذلك، التغير في الهوية والعقيدة عند اللاعبين الداخليين قد يؤدي إلى تغير بنوي كما يؤكد روبرت كيوهان: انهيار الاتحاد السوفييتي بسبب «حق تقرير المصير» وليس بسبب منطق القوة العسكرية أو المصادر الاقتصادية.

ترتكز المصلحة القومية الآن على الشكل الذي يرى فيه الناس هويتهم، إذا كانوا يعرفون ذاتهم صرب، أو كروات، روس أو شيشان. كذلك ترتكز المصلحة القومية على القيم السياسية والدينية التي يتمسك بها السكان. بالمحصّل، زادت نهاية الحرب الباردة من وعي الأكاديميين لأهمية الأفكار والمعايير⁴².

لقد غيرت القيادة السوفيتية النظام الدولي وذلك من خلال عملية التحلي عن الأيدولوجيا، وهذا يعتبر في نظر كيوهان وكراشويل أهم من التراجع الاقتصادي. اقتراحات غورباتشوف في موضوع نزع الأسلحة النووية لم تكن حملة إعلامية تستهدف إعادة إحياء الخطاب الأيدولوجي السابق، إنما قطيعة حقيقية مع الإستراتيجية السوفيتية للأمن القومي. اقترح ميخائيل غورباتشوف إستراتيجية مخالفة لسابقه إذ أيد نزع أسلحة إستراتيجية مع قبول فكرة تفتيش في المواقع، ومع قبول فكرة مشاركة مدنيين في تحضير الإستراتيجية العسكرية السوفيتية، ومع فتح بلاده نحو الخارج.

٢، ١- البنية المعقدة للعلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة

يوجد موقفان يؤيدان فكرة البنية المعقدة للعلاقات الدولية التي تجد تعزيزاً لها في نهاية الحرب الباردة. الموقف الأول يمثله ايمانويل فالرشطاين الذي ينطلق من فكرة فرديناند بروديل «نظام اقتصادي عالمي»، والذي يعرف من خلال تقسيم عمل بين مركز، محيط، وشبه محيط. يعرف النظام العالمي أيضاً كوحدة مستقلة تعمل وفق أكثر من صيرورة داخلية تتضمن عناصر ثابتة وأخرى متغيرة، أي، عناصر نظامية وعناصر تاريخية. تعريف النظام العالمي، بأنه نظام معقد ينطلق من هذا التناقض بين عناصر تتطور ببطء -البنى- وعناصر تتطور بشكل اسرع. هذا التعريف لا بد أن يظهر غريب في نظر الذين يعتبرون

⁴² Robert Keohane, 'Organisations internationales: quels fondements theoriques?' Problemes Economiques, La Documentation Française, N0.2611-2612, 7-14 avril 1999 pp.36-40

مصطلح نظام هو مصطلح محافظ. لكن بالنسبة للباحث، كل نظام له خصوصيته انطلاقاً من ولادته، من فترة وجوده، ومن بيئته. كل نظام تاريخي له بداية ونهاية. نهاية النظام العالمي الرأسمالي لا يمكن أن تكون تاريخ معين ومحدد، إنما فترة انتقالية قد تمتد لسنوات عدة. يقدم فالرشطاين تحليلاً طموحاً يهدف إلى تقديم رؤية شاملة تتضمن الجوانب الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية، والثقافية.

الموقف الآخر هو للعالم الاجتماعي جيمس روزنو الذي يؤمن بأن النظام كلما عمل بشكل طبيعي كلما كانت النتائج قابلة للتوقع وللتنبؤ، لكن في لحظة دخول بنى النظام في أزمة فإن التنبؤ يصبح مستحيلًا. هذا الباحث، وبخلاف ايمانويل فالرشطاين، فإنه يركز على الدولة القومية، وليس على الاقتصاد، لدراسة التغير في نظام العلاقات الدولية. في نظر جيمس روزنو يعرف التاريخ حالياً عملية انقسام «bifurcation» بين عالمين: الأول يتميز بمركزية الدولة والآخر متعدد المراكز. يقول هذا الباحث أنه ومنذ اتفاقية وستفاليا ١٦٤٨ «استطاعت السياسة الدولية ان تضمن استمرارية معينة في الشؤون الدولية بسبب قيود عميقة ذات طابع تنظيمي واجرائي، معايير parameters، احتوت من خلال ثباتها النسبي كل التغييرات الممكنة والمهمة داخل حدود معروفة وقابلة⁴³ للتنبؤ»، لكن حالياً دخلت هذه المعايير في حالة اضطراب ما يفسر التقلبات في السياسة الدولية والتي أصبحت فوضوية وغير قابلة للتنبؤ.

١، ٢، ١- البنية المعقدة التي تركز على مفهوم المدة التاريخية الطويلة (تحليل ينطلق من النظام الاقتصادي العالمي)

على غرار الفيلسوف الألماني هيغل - كل ما هو واقعي هو عقلائي، وكل ما هو عقلائي هو واقعي- يرى ايمانويل فالرشطاين بأن كل ما هو تاريخي هو بنيوي، وكل ما هو بنيوي هو تاريخي، من هنا تعريف النظام

⁴³ Michel Girard, 'Turbulence dans la théorie politique internationale ou James Rosenau, inventeur' Révue Française de Science Politique, vol. 42 N0. 2 août 1992 p.636-643

الاقتصادي العالمي على أنه نظام معقد: التناقض بين عناصر تتطور ببطء (عناصر بنوية) وعناصر وتيرة تطورها أسرع (عناصر تاريخية). في رأي الكاتب، كل نظام تاريخي له بداية ونهاية، والنظام الاقتصادي العالمي له، أيضاً، بداية ونهاية.

تطور النظام الاقتصادي العالمي على الأرض الأوروبية في القرن السادس عشر وتميز بمنطقه الداخلي: توسع لامتناهي للرأسمال والذي يتضمن توسع إقليمي. نجح النظام الاقتصادي العالمي في دمج إمبراطوريات حيث ادخلها ضمن تقسيم العمل الإقليمي: مركز، محيط، وشبه محيط. يقدم التحليل من خلال مصطلح النظام الاقتصادي العالمي توجه «خارجي» في قراءة التغيير الاجتماعي، حيث ينطلق التحليل من المركز وحدائته ليتفحص فيما بعد الأثر الاقتصادي، السياسي، والاجتماعي لهذه الحداثة على مجتمعات المحيط. العملية هنا هي عملية ذات اتكال متبادل حيث تحديث إقليم يكون دائماً على حساب أقاليم أخرى. نظرية الحداثة هنا يجب أن تأخذ بعين الاعتبار الظروف المجتمعية والتاريخية. يتبنى فالرشطاين رؤية ماركس فيما يخص العلاقة بين البنية الاقتصادية والبنية الفوقية والتي تشير الى الدول، الطبقات، والشعوب. فهو يعود الى ما أتى في رسالة من ماركس إلى انينكوف ١٨٤٦: يتساءل فيها ماركس مشككاً «إذا ما كان لا يشكل مجمل التنظيم الداخلي للأمم وعلاقاتها الخارجية، تعبيراً لتقسيم عمل⁴⁴ معين». عملية تراكم رأسمال لا تأخذ نفس الوتيرة في الثلاثة مناطق الجيواقتصادية (المركز، المحيط، وشبه المحيط)، والعلاقات بين هذه المناطق هي علاقات تبادل غير متكافئ وعلاقات سيطرة وتبعية.

في نظره، يذكر عام ١٩٨٩ بعام ١٩٦٨، إذ يوجد استمرارية من حيث أن ١٩٦٨ تشير إلى ثورة ضد النظام الرأسمالي العالمي، وضد الاستراتيجية التي دعت إلى الاستيلاء على السلطة من أجل تغيير المجتمع، والحركات ضد النظام الرأسمالي التي طالبت بهذه

⁴⁴ Immanuel Wallerstein, *Unthinking Social Science: The limits of nineteenth Century Paradigms*, UK Polity Press 1991 pp.160

الاستراتيجية. تأتي التغيرات السوفيتية بعد الأزمة المضاعفة للنظام الاقتصادي العالمي وللبيروقراطية الاشتراكية كحركة ضد النظام. أزمة النظام السوفيتي هي تعبير بنيوي، لأنه يمثل بنية ضد النظام، كلاسيكية ومحلبة خاصة بمنطقة شبه المحيط. تشير الأزمة وفقاً لإيمانويل فالرشتاين إلى «توتر بنيوي قوي حيث تصبح امكانية الخروج الوحيدة هي اختفاء النظام ذاته». الأزمة هي إذن مرحلة انتقالية بين نظاميين، والنظام الاقتصادي العالمي دخل منذ ١٩٦٨ في فترة أزمة والتي قد تمتد إلى عدة سنين وحتى عقود.

من أجل فهم لهذه الأزمة المضاعفة، يعود بنا إيمانويل فالرشتاين إلى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ التي مثلت حدث تاريخي-بنيوي إذا نظرنا إلى ما أحدثته من موجات داخل النظام الاقتصادي العالمي. تم ترك الميثولوجية التقليدية الزاعمة بأن التغيير السياسي هو أمر استثنائي لصالح التغيير كأمر حتمي وطبيعي. هنا يكمن التحول الثقافي الأساسي في النظام الاقتصادي العالمي. لقد ادخلت الثورة الفرنسية ثلاثة تجديدات مؤسساتية خرجت إلى حيز الوجود فقط بعد عام ١٨٤٨، وهي الأيدولوجية، العلوم الاجتماعية، والحركات ضد النظام. تمثل هذه التجديدات ما نسميه الحداثة. الأيدولوجية هي تفسير للعالم تم صياغتها بشكل جماعي مع أهداف سياسية. لا يمكن تصور وجودها في نظام لا يعتبر التغيير أمراً طبيعياً. من أجل تغيير العالم، ترتكز الأيدولوجية على معرفة هذا العالم. هذه المعرفة هي من ضمن العلوم الاجتماعية، وهي ناتج عمل جماعي مثل عمل الجامعات، وليس عمل فردي لفيلسوف معين. أدوات التغيير السياسي هي الحركات ضد النظام، والتي تشير إلى تنظيمات بيروقراطية وهرمية تخطط سياسة التحول الاجتماعي. هذه الحركات ليست إذن مجرد هبات شعبية عفوية.

عرف القرن التاسع عشر ثلاثة أيدولوجيات، المحافظة التي تدعم الوضع القائم، الليبرالية التي تدعم التغيير كامر طبيعي والاصلاح، والماركسية التي تريد تغييرات ثورية تمثل قطيعة مع الماضي. الليبرالية مثلت الأيدولوجية السائدة حيث اضطرت الأيدولوجيات الأخرى لاستخدام مصطلحاتها، حتى أن الماركسية تم لبرلتها من خلال قراءة برنشتاين،

ومن ثم لينين، وذلك بتبنيها للميثولوجية التاريخية التي سيطرت في فترة ١٨٤٨-١٩٦٨: «طبيعية التغيير وفكرة التقدم الليبرالية». الأحداث التاريخية في المنظومة الاشتراكية أتت إذن بعد المنعطف التاريخي ١٩٦٨ والذي أعاد النظر في ثلاثة أمور: الاستراتيجية، العقلية، والنظام الاقتصادي ككل.

على صعيد الاستراتيجية، برزت حركات جديدة ضد النظام ترفض الاستراتيجية الكلاسيكية التي تعطي افضلية للاستيلاء على الدولة، ويظهر ذلك مع المعارضة للبيروقراطية الاشتراكية التي ركزت على المجتمع المدني وعلى التحول من أعلى. المجتمع المدني يشير إذن إلى استراتيجية، وليس إلى تحول بنوي، وبالتحديد إلى محاولة إيجاد إستراتيجية بديلة. انعدام الاستراتيجية البديلة هو الذي أدخل هذه الحركات في حالة من الإرباك والتخبط.

على صعيد العقلية، أصبحت «الثقافة» المجال المفضل للفعل الاجتماعي، وهذا يفسره الكاتب من خلال تفكك العلوم الاجتماعية للقرن التاسع عشر، وبالأخص فكرة أنه من خلال تغيير البنى الاقتصادية والسياسية نستطيع تحقيق التقدم الاجتماعي والتوصل إلى الخلاص. في أوروبا الشرقية تم التأكيد على دور «الكلام» والانتليجنتسيا في الصراع ضد النظام الشيوعي. هذا لا يشير إلى غربنة الشرق، إنما إلى رفض العمومية الليبرالية. الخطاب العمومي للنظام الاقتصادي العالمي يدافع، وبنفس الوقت، عن التشابه مع الثقافة الغربية وعن تعددية الثقافات. يرى ايمانويل فالرشتاين أن فكرة ماركس بأن الأفكار السائدة تتركز على طبقة سائدة غير كافية، لأن العمومية، التي وظيفتها احتواء التناقضات والغموض الذي يميز النظام الاقتصادي، يمكن أن تستخدم إما كأيدولوجية تغيير، كما نرى مع حركات ضد النظام التي تحمل معايير ثقافية خاصة بالنظام. هذا يفسر مشكلة هذه الحركات لأنها تركز على النظام من أجل محاربة النظام وتغييره.

باختصار، نحن نعيش مرحلة انتقالية، تتميز باللاأكيد والتخبط. ينعكس ذلك في مسألتين: الدور غير الواضح لليسار التقليدي، داعم وناقد،

بنفس الوقت، للنظام الاقتصادي العالمي، إذ يقترح هذا اليسار نموذج بديل للنظام الرأسمالي، بنفس الوقت الذي يدافع عن الوضع القائم السياسي من خلال خلق وسائل جديدة لقمع قوى الإنتاج (نظام الدولة الاشتراكية). التخطيط والإرباك يعود أيضاً إلى بروز حركات جديدة ضد النظام، بالإضافة إلى أزمة العلوم الاجتماعية في عدم قدرتها على جعل الواقع السياسي الاجتماعي، الذي في حالة تغير دائم، قابل للفهم.

فكرة التخطيط أو الاضطراب هي في مركز اجتهادات جيمس روزنو وماري ديرفي، الذين يعتبران أن الحديث عن سياسة ما بعد الدولية ملائم أكثر من أجل التركيز على تراجع بعض انماط من الفعل، دون الإشارة، وبنفس الوقت، إلى أين ستقود هذه التغيرات. نهاية الحرب الباردة تنخرط في تطور تاريخي يخص النظام الدولي ككل، حيث نشهد انزلاق من نظام دولاني إلى نظام يتميز بتداخل الداخلي والخارجي. من هنا التحفظ على نظام دولي يشير حصرياً إلى تبادل بين الدول القومية كوحدات سياسية، وحيدة، متجانسة، وفعالة. لم تعد الدول اللاعبين الاساسي في العلاقات الدولية حيث يتم تحديها من قبل حركات فوق قومية وحركات تحت قومية.

٢،١- انقسام بنية السياسة العالمية

المفاجأة التي أثارها أحداث ١٩٨٩ ينظر إليها هنا كمؤشر للفجوة بين فهمنا للعلاقات الدولية والتحولات الكبرى التي في طريقها إلى الخروج لحيز الوجود داخل السياسة العالمية. هذه التحولات بدأت قبل أحداث ١٩٨٩، لكن انهيار الامبراطورية السوفييتية يمثل قمة القوى والدينامية التي تشغل فضاء الحياة الدولية. عمق التحولات يفرض علينا عدم الاستمرار بالتعامل مع الجانب «الدولاني» وكأنه الجانب السائد، هناك جوانب أخرى، والتي تتحد بالدولة⁴⁵. ينظر إلى الحرب الباردة هنا على أنها غطاء، وليس حدث سبب تحولات عميقة تمثل دخولنا في مرحلة

⁴⁵ James Rosenau and Mary Durfee, Thinking Theory Thoroughly: Coherent approaches to an incoherent World, Westview Press 1995 pp.31|32

جديدة، تتميز بعدم الثبات والبلبلية - فكرة الاضطراب العالمي. وفقا لجيمس روزنو وماري ديرفي، «البراديغم الواقعي يقتصر فقط على نظام الدولة، ويفترض أنه يسيطر في مجرى الاحداث الدولية، بينما نموذج الاضطراب يشير إلى نظام متعدد مراكز القوة للاعبين غير دوليين، مستقلين عن نظام الدولة، يتنافسون، ويتصارعون، ويتعاونون، وبكلمات أخرى، يتبادلون مع النظام الدولاني. يضيف الانفصام مستوى آخر من التعقد للبنية الفوضوية»⁴⁶. يهتم منظرو براديغم ما بعد الدولي بعملية تلف مستمرة لسيادة الدولة حيث لم تعد الدول تسيطر على العلاقات التبادلية العابرة لحدودها، لكن أيضاً اللغة الدبلوماسية لم تعد تتضمن تخوف من قبل الدول بالتداول على سيادتها. بالنسبة لمختص الدولة، برتراند بادي، تنخرط نهاية الحرب الباردة ضمن، أو تتوافق مع، تطور النظام الدولي من نظام دولاني إلى نظام متعدد المراكز. هذه النهاية تظهر أزمة غربنة العالم. يقترح الكاتب سببية دائرية: «الادوار قابلة للتبادل. أولاً، تطور النظام الدولي، والذي يتمثل بمجاورة منطق العابر للحدود القومية لمنطق الدولة القومية، والذي قد يساعدنا في توضيح ما حصل في شرق أوروبا، بالإضافة إلى ذلك، ما حصل في شرق أوروبا يعزز من الطعن في النموذج الدولاني الغربي». في شرق أوروبا، رأينا صعود انتماءات وسيطة مثل الاثنية والمنجمع «Community» والتي يفترض أن تتلاشى لصالح المواطنة، والتي تفهم بانها خضوع الفرد لمركز سياسي، الدولة. الانتماء الاقليمي «الدولاني» مهدد من أسفل على يد هويات أثنية، ومن أعلى على يد هويات فوق قومية مثل الاتحاد الاوروبي.

يرى برتراند بادي أن ظاهرة الاضطراب العالمي تنعكس أولاً في زعزعة شرعية وسلطة الدولة تحت تهديد حركات التشرذم والتمركز التي تشغل فضاء الواقع الدولي. «من منطلق تجاوز لسيادة الدول»، يقول بادي، هجوم الحلف الاطلسي ضد يوغسلافيا لا يشكل أول تجاوز. هناك سوابق لذلك مثل تدخل الولايات المتحدة لتثبيت الديمقراطية

⁴⁶ James Rosenau and Mary Durfee; idem pp/ 34

في هايتي عام ١٩٩٤، او قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ عام ١٩٩١ الذي ثبتّ واجب التدخل الانساني لأكراد العراق. لكن، من منطلق حجمها وطابعها الحربي، الهجوم على يوغسلافيا يشكل منعطفاً «ضد السيادة». بنفس الوقت، عولمة الاقتصاد والاتصال لها تأثير مهم على تفكك السيادة وتعزيز القيم الإنسانية⁴⁷. يمكن أن نرى ذات الموقف عند السكرتير العام الحالي للأمم المتحدة كوفي أنان «القرن الذي يبدأ يتطلب تعريف جديد وواسع للمصلحة القومية، تحث الدول أن تتوصل الى اتفاق في بحثها عن الاهداف والقيم المشتركة. اعتبارا للتحديات التي تواجه الانسانية اليوم، المصلحة العمومية أصبحت هي ذاتها المصلحة القومية⁴⁸»

الدولة التي تلعب دوراً مركزياً في العلاقة بين المركز والمحيط تمر اليوم في أزمة. المجتمعات غير الاوروربية تميل أقل وأقل إلى تبني المؤسسات والممارسات السياسية، الاقتصادية، الثقافية الخاصة بالمجتمعات الغربية. وفقا لبرترناد بادي فان الحرب الباردة ساهمت وشاركت في غربنة العالم بمعنى دولنة etatisation العلاقات الدولية: استيراد عناصر من التاريخ الغربي على يد المجتمعات غير الغربية، مثل مبدأ السيادة ومبدأ الإقليمية (الانتماء إلى إقليم وليس الى قبيلة أو منجم أو أثنية هو الذي يحدد الهوية الجماعية)، ويعتقد أيضا أن الحرب الباردة كانت لحظة قوية في تعميم النظام السياسي الغربي وتوسيع رقعة الحداثة. في سنوات الستينات والسبعينات، أمّنت دول الجنوب أن باستطاعتها إدخال التحديث من خلال التقليد، استيراد واستيعاب المؤسسات الاقتصادية والسياسية الخاصة بنماذج الحداثة الغربية، الرأسمالية والاشتراكية. نهاية الحرب الباردة تأتي ضد الغربنة وتمثل فشل عمومية النظام السياسي الغربي (الدولة المستوردة) الذي يقف وراء الفوضى بالنسبة للهوية وللمعاني. «فشل العمومية يقود إلى

⁴⁷ Bertrand Badie, 'La Realpolitik classique qu'on connaît depuis deux siècles s'estompera' LeMonde 13 avril 1999

⁴⁸ Kofi Annan, 'Deux concepts de la souveraineté' LeMonde 22 septembre 1999

أزمة المواطنة، ما يدفع إلى صعود التيارات العابرة للحدود القومية، أي العلاقات الدولية شبه الرسمية والتي تتجاوز المؤسسات الدولية وتتجاهل عمدا ادعائها باحتكار استخدام الوظيفة العسكرية الدبلوماسية، هذا ما نشهده في تعارض المواطنة الجزائرية والانتماء الى العالم الاسلامي. (...) منطق الفوضى ينزع عن الدولة كل ما يمكن أن يمنحها مكانة لاعب مهم، أو كل ما يساهم في جعلها لاعب اعلى تراتيبيا من باقي اللاعبين⁴⁹. في نظره، ساهمت الحرب الباردة في تعميم النظام الغربي ومبدأ السيادة، كما انعكس ذلك في رفض الاتحاد السوفييتي حرية انتقال المعلومات. تشجع نهاية الحرب الباردة التيار العابر للحدود القومية وليس تعميم نظام دولاني.

إن تفكك وانهيار داخلي implosion للدول يعد ميزة أساسية للعولمة. تتميز أهداف الدول، في إطار الاضطراب، بعدم الثبات مع اهتمام أقل بالأمر العسكري وتركيز اكبر على الحفاظ على الوحدة الداخلية. في مواجهة حركات الانفصال، تبذل الدول الكثير من الجهد لتعزيز سلطتها في الداخل وزيادة قدراتها على الصعيد الخارجي. تحدي القومية الاثنية أصبح موضوعاً غير تقليدي في سنوات الثمانينات للتعاطي مع التغيرات الدولية. « الدور الذي تلعبه الاثنية كعامل مهم في السياسة الدولية، أو كجزء من السياسة الخارجية، هو غير مهم من زاوية الرؤية المحافظة التي تتمسك بالنظام القائم. بما أن المجموعات الاثنية هي لاعبين غير دوليين، وفي معظم الحالات لاعبين ما تحت القومية، فإن قدرة هذه المجموعات على لعب دور مؤثر في عملية اتخاذ القرار في السياسة الخارجية قد تم تهميشها. المقاربة التي تركز على الدولة، مع تشديدها على السيادة الاقليمية والسيطرة على مصادر اقتصادية هامة، تهمش الاثنية كعامل سياسي ذات أهمية...»⁵⁰

⁴⁹ Bertrand Badie 1992 idem pp. 22

⁵⁰ "John F. Stack, The Challenge of Ethnonationalism" in Steven L. Lamy, Contemporary International Issues, Contending Perspectives; London, Boulder and Lynne Rienner Publishers 1988 pp:229-245 pp. 235

مركزية وأولية الدولة في العلاقات الدولية دفعتنا حتى الدول الجديدة الى محاولة تنقيف مجتمعاتها وفقا للنموذج الغربي للثقافة المدنية والفكر السياسي العلماني. في نظر برتراند بادي، الغربية ما هي إلا ظاهرة تعوم على السطح، ولا تخفي حاليا صعود الانماط الشعبوية للفعل السياسي ولثقافات قديمة. يعتقد الكاتب أن التاريخ هو ثقافة، بمعنى أن كل ثقافة تملك تمثيل خاص بها للزمن. في مجتمعات شرق أوروبا مثلا هناك نمطين من التمثيل للزمن الغربي والخاص بالمجتمع الشرق اوروبي. بادئاً، مصطلح الثقافة يشير إلى جاذبية النموذج الغربي السياسي والاقتصادي بالنسبة للمجتمعات غير الأوروبية. نهاية الحرب الباردة تشير إذن، بالإضافة إلى تلف النظام الدولاني، إلى تلف النظام العمومي الخاص بأوروبا التنوير لصالح نظام متعدد المراكز ونظام متشرذم ثقافيا. في عدد كبير من الدول، النموذج العمومي للدولة يتم تحديه لصالح الخصوصية الاثنية. حديثا في دول متعددة الاثنيات، مثل الهند، نجد أن حزب الكونغرس، والذي التزم بمفهوم إقليمي للأمة الهندية، يتراجع لصالح مجموعات أثنية، بالأخص الهندوسية، والتي تعتبر الهندي هو من يعتبر الهند بلداً مقدساً ما قد يستثنى الاقلية المسلمة. كما أننا نشهد احتجاجاً في معظم الدول والذي ينطلق ليس من القانون الدولي الغربي بل من الثقافات والتقاليد المختلفة مثل الجزائر. هذا ما يؤكد أيضاً المختص زكي لايدي الذي يرى أنه، بالإضافة الى عملية تلف للدينامية الدولية، هناك عملية تلف أخرى للدينامية الأيديولوجية (أيديولوجية التقدم الخاصة بفترة التنوير)، الصراع بين الشرق والغرب كان بين نظاميين يمثلان التقدم والحداثة.

لقد أشرنا سابقا الى اجتهادات تؤكد على دور اللاعب في تغيير البنية (تحليل من أسفل)، والى اجتهادات تعرف التغيير بمعنى تعقد البنية (تحليل من أعلى). هذه الاجتهادات أثارث ثلاثة مواضيع مهمة وهي: تغير في المعايير والأفكار عند القيادة السوفييتية، «جدلية المدة التاريخية» (فرديناند بروديل): العلاقة بين الأحداث التاريخية (انهيار الإمبراطورية السوفييتية) والمدة الطويلة (تقسيم عمل معين، مؤسسات وممارسات مثل الدولة، الإقليم، السيادة، الخ...)، والقوى الاجتماعية

السياسية تتواجد داخل الدولة وعابرة للدولة. هذه المواضيع تدخل ضمن النظرية النقدية للعلاقات الدولية والتي يمثلها روبرت كوكس، حيث ركزت على مصطلح «البنية التاريخية».

٣، ١- البنية التاريخية للعلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة

يستخدم روبرت كوكس⁵¹ «البنية التاريخية»، بشكل مشابه لمصطلح الوضع التاريخي عند انطونيو غرامشي، حيث يتم تناول جدلي للبنى الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية ضمن إطار تاريخي خاص ومحدد. ضمن هذا الإطار التاريخي، والذي يشير الى «حدود الممكن»، هناك مكان لضرورة أو حتمية تاريخية. الحتمية التاريخية هنا لا تركز على فكرة التقدم، أو العقل التاريخي كقوى موجهة للسيرورة التاريخية، بل حتمية تاريخية ضمن خصوصية تاريخية معينة. لا وجود لنظام سياسي أو بنية سياسية عابرة للفترات التاريخية المختلفة. البنية الاجتماعية ليست أمراً مجرداً إنما تتجوهز في تركيبة معينة من الدول والقوى الاجتماعية، والتي تخص مرحلة تاريخية معينة وتتميز بظروف معينة.

بخلاف ايمانويل فالرشطايين، لا ينطلق روبرت من البنية (تقسيم عمل في النظام الاقتصادي العالمي: المركز، المحيط، شبه محيط) لتعليل الصراع الدولي، بل من الصراع الدولي لفهم وتعليل التغير البنوي. نقول فهم وتعليل التغير البنوي، بمعنى قبول مستوى معين من التعميم النظري، لكن ضمن إطار تاريخي خاص يتطلب الفهم. التشديد لديه على الصيرورة التاريخية وليس على البنية. فالواقع الاجتماعي في فترة تاريخية معينة يتضمن «القيود البنوية» (حدود الممكن)، والتي تتضمن أيضاً الوعي السياسي (الفلسفي، النظري، الأخلاقي، والأفكار العامة)⁵².

⁵¹ Robert W.Cox and Timothy J.Sinclair, Approaches to World Order, Cambridge, Cambridge University Press, 1996, pp.97

⁵² Stephen Gill, 'Epistemology, ontology, and the 'The Italian school' in Stephen Gill, Gramsci, Historical materialism and international relations, Cambridge, Cambridge University Press, 1993, pp.21-48 pp36.

يعود روبرت كوكس أيضا للمؤرخ الفرنسي فرديناند بروديل ولفكرة تعددية الأزمنة التاريخية بين حدث مفصلي والمدة الطويلة التي تشير الى نظم فلسفية، ممارسات، رؤية للزمن، للهرمية الاجتماعية وللفضاء (مثلا رؤية أرسطو للفضاء لم تختف إلا مع بروز نظرية غاليليو). يتحدث بروديل عن عناصر الاستمرارية، لكن داخل جدل حول التغيير الاجتماعي وبالارتكاز على إطار اجتماعي خاص.

فكرة البنية التاريخية كإطار للفعل تضم من ناحية مفاهيمية القدرات المادية(وهي قدرات تنظيمية وقدرات تقنية)، لكن أيضا، أفكارا مشتركة ما بين ذاتية «intersubjective ideas» تسمح بتوقع التصرفات أو بتشكيل رؤية للعالم الاجتماعي، ومؤسسات تجمع القوة المادية والأفكار. إذن، البنية هي أكثر من مؤسسات. على صعيد العلاقات الدولية، تترجم البنية التاريخية إلى كيان اجتماعي عالمي يتضمن درجة معينة من الاندماج، ويجمع بنى اجتماعية، قوى اجتماعية، وأشكال دولتية. في نظر روبرت كوكس، الدولة ذاتها تتكون من كتل قوى اقتصادية-اجتماعية وقوى سياسية التي تعمل ضمن حدود حتمية تاريخية معينة. الممارسات والمؤسسات يجب أن تفهم من خلال عملية تغير في عقلية مصممي هذه المؤسسات. هذه المؤسسات تتكون جزئيا من وعي الأفراد والمجموعات، ما يعني أن الموضوعي والذاتي يتدخلان. هناك وحدة هوية بين الذاتي والموضوعي. مفهوم البنية يتضمن جانب إنساني: الفعل الاجتماعي يتكون ويتقيد داخل بنى اجتماعية سائدة، وهذه البنى قابلة للتحويل من خلال فعل جماعي.

بعكس كينيث ولترز الذي يتبنى منهجية فردية تتعامل مع النظام الدولي على أنه يتألف من لاعبين منعزلين(يتم اعتبار الدولة كفرد) يتبادلون العلاقات في بنية فوضوية، رؤية روبرت كوكس تنطلق من الوضع، مجمل العلاقات الاجتماعية والبنى الاجتماعية وأشكال دولتية. لكن الدولة ليست أمرا موضوعيا بل ناتج أفكار مشتركة ما بين ذاتية. لا وجود للدولة أو للطبقة الاجتماعية بشكل مشابه للفرد، بل يتصرف الفرد وكأن هذه الكيانات⁵³ حقيقية.

⁵³ Robert W. Cox and Timothy J. Sinclair, ibid, 1996, pp.52

بالنسبة لأشكال دولية، يعتقد روبرت كوكس أن التمييز هو بين نوعين من المجتمعات، المجتمع الداخلي وهو مجتمع مدني، والمجتمع الخارجي وهو الوضع الطبيعي وفقا لرؤية هوبس. هذا التمييز الذي تم تبنيه منذ القرن التاسع عشر أدى إلى تهميش التعاطي مع فكرة تعددية أشكال الدولة. في أوروبا الشرقية ما حصل هو انهيار نمط الانتاج للشيوعية الحقيقية، حيث لم يعد يقدم ما هو مطلوب لتلبية الحاجيات الاجتماعية. أزمة البنية الاقتصادية والاجتماعية للامبراطورية السوفييتية أدت إلى انهيار الوهم الشيوعي، أو ما يمكن تسميته انهيار هيمنة الشيوعية الحقيقية، إذا اعتبرنا أن الأساس الشرعي لهذه الهيمنة هو اقتصادي. لكن أيضا انهيار شكل دولة قمعي وهوبسي يتميز بسيطرة الدولة على المجتمع المدني، بشكل يسمح لها بتركيز القوة السياسية من أجل تعبئة مصادر مادية قومية. في المقابل، شكل الدولة في الغرب يتميز بعلاقة تبادلية بين الدولة ومجتمع مدني قوي. على الصعيد الدولي هناك توجه نحو اقتصاد اكثر ليبرالي، وهذا أنعكس في إعادة بناء اجتماعي في أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية. على الصعيد الدولي، هناك انهيار لشكل الدولة القمعية، لكن أيضا تدويل شكل مجتمع مدني يملك تنظيم ذاتي كما يراه جون لوك. ما حصل هو «ثورة خاملة» على حد تعبير انطونيو غرامشي، وتشير الى تطور يتمثل في تقليد للبنى الاقتصادية والاجتماعية في اقاليم أقل تطورا. تحصل ثورة خاملة في شروط مجتمع لا يوجد فيه أي طبقة مهيمنة وتستطيع فرض هيمنتها.

يعتبر كوكس أن القوى الاجتماعية ليست محصورة في دولة ما إنما تتجاوز حدود الدول وتضم مجموعات وقوى غير دولية. الحرب الباردة لا يمكن فهمها انطلاقا فقط من الاسلحة الفتاكة أو مسألة استمرارية الانسانية. النظام الدولي، وما بعد الدولي، يجب أن يفهما انطلاقا من بنى اجتماعية وقوى اجتماعية دخلت فترة تاريخية انتقالية.

يؤمن روبرت كوكس بنسبية المعرفة، وأن المعرفة هي ذاتها جزء من الصراع الاجتماعي والصراع بين مشاريع هيمنة وهيمنة مضادة. يقول روبرت كوكس أن النظرية تتبع الواقع، لكن وبنفس الوقت النظرية تسبق

وتصقل الواقع⁵⁴. على غرار غرامشي يربط كوكس نظرية المعرفة بنظرية الهوية والمصلحة. يهدف الجهد الثقافي والفكري للتعليل الاجتماعي، وهذا يرتبط بشكل مباشر أو غير مباشر باستراتيجيات سياسية تم تطويرها من وجهات نظر مختلفة في الصراع الاجتماعي. النظرية هي دائما لصالح طرف ما ولتحقيق هدف⁵⁵ ما.

بعد التطرق الى البنية والمصالح سننتقل الى البنية الفوقية المعقدة والمؤسسات والأيدولوجيات.

٢. الهيمنة في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة

ماذا كان المنطق الذي يحكم الحرب الباردة؟ لقد اعتبرها ايمانويل فالرشطاين بأنها «حرب وهمية»، وذلك للإشارة إلى التناقض الأيديولوجي. لكن هذا يجب أن لا يقلل من معرفة الخطر الذي شكله كل طرف للطرف الاخر، ولم تكن مجرد مؤامرة امريكية-سوفييتية للسيطرة على العالم. بالفعل لقد كانت الحرب الباردة غريبة الاطوار كحرب، لأنها لم تستند الى مطالب اقليمية او تنافس تجاري إنما إلى مسألة تنظيم المجتمع. مختص السياسة الخارجية الغربية جون فرانسوا ريفيل ذهب حتى الشك في مصطلح الحرب الباردة، حيث اعتبر أن انهيار الشيوعية لا يمت بصلة إلى السياسة الخارجية الغربية، إنما كان ناتج الفشل الداخلي الذي كان قبل كل شيء اقتصاديا لكنه تعدى الاقتصاد⁵⁶.

⁵⁴ Cox and Sinclair pp.137

⁵⁵ "Theory is always for someone and for some purpose. All theories have a perspective. Perspectives derive from a position in time and space. The world is seen from a standpoint definable in terms of nation or social, of dominance or subordination, of rising or declining power, of a sense of immobility or of present crisis, of past experience, and of hopes and expectations for the future" Cox and Sinclair, 1996 pp.87

⁵⁶ Jean-François Revel, Le regain démocratique, Paris Fayard 1992 p.83

لعبت الحرب الباردة كصراع وهوية دوراً مهماً في حياة كل الدول. منذ أكثر من أربعين عاماً، تم التفكير بالعلاقات الدولية من خلال التقسيم شرق/غرب. وفر هذا التقسيم إطاراً جيوسياسياً من خلاله عرفت الدول ذاتها واتخذت مواقفها. دول عدم الانحياز خضعت لهذا الإطار لكن عرفت ذاتها بشكل سلبي. في نظر كين جويت⁵⁷، حقيقة أن الديمقراطية الليبرالية بقيت الأيديولوجية الوحيدة هذا لا يمكن أن يعني نهاية التاريخ، بل اختفاء للعقيدة اللينينية leninist extinction. انهيار مفاجيء لأحد المعسكرات، والتي تنافست فيما بينها لمدة طويلة وفي صراع عالمي، لا بد وأن يقود إلى إعادة تعريف راديكالية لحدود السياسة الدولية، وليس إلى صعود سهل وغير قابل للتحد من المعسكر الآخر. من هنا فكرة الفوضى (chaos) التي يتبناها أيضاً زكي لايدي. في نظر زكي لايدي، الحرب لم تعد تملك وظيفة تكوين هوية جماعية. نهاية الحرب الباردة تكرر ذلك حيث لم تنتهي الحرب كوسيلة لاستخدام العنف، إنما تلف معيار الحرب كوسيلة بناء لهوية جماعية تمثلها الدولة⁵⁸. يعتبر هذا المختص أن انعدام معارضة عالمية، مثل السوفييتية، للنموذج الغربي لا يعني أن الجميع يتبنى هذا النموذج (أطروحة نهاية التاريخ)، إذا أردنا الحديث عن نهاية للتاريخ ففي نظر زكي لايدي هذا التاريخ هو التاريخ الغائى والهيغلي الذي يستند على وعد تحمله الدولة. الحرب الباردة كانت في نفس الوقت صراعاً جيوسياسياً ونظاماً رمزياً: النظامين، الرأسمالي والاشتراكي تشاركا في أيديولوجية التقدم، موروث فترة التنوير. شكلت سنوات الحرب الباردة، ولأول مرة في التاريخ، لحظة وحدة في الهوية بين «التاريخ الجاري» و«فلسفة التاريخ»: فكرة الدولة كعنصر تقدم وحادثة ارتكزت على التقدم الاقتصادي والاجتماعي الفعلي. الجانب الغائى وفر للحرب الباردة تجانس معين. «منطق الحرب الباردة، مثل أي منطق غائى، يتضمن الآخر والأفق. الواقع اليوم معقد لأننا فقدنا معنى الأفق وشكل العدو الذي يعطي شرعية للجهد الجماعي

⁵⁷ Ken Jewitt, After Leninism, the new world disorder, Journal of Democracy Vol.2 N0.1 Winter 1991 pp.12-44

⁵⁸ Zaki Laidi, , Un monde prive de sens, Paris, Fayard, 1994, ibid, pp.147

الذي يشير باتجاه هذا الأفق. وللحظة فإن مجال «الآخر» ينزلق من الخارج إلى الداخل حيث أصبح داخل المجتمعات وحتى الأفراد. العدو في داخلنا، هذه هي الفكرة التي تشغل أوروبا الشرقية تحت ما يشار إليه بالعودة إلى القومية. وتوسعها إلى أوروبا الغربية هو الذي يثير مشكلة⁵⁹. الحرب الباردة كانت صراعاً ونظاماً رمزياً، لكن مثل أية حرب أخرى كانت صراعاً ووسيلة امتلاك هوية كما تدعم سسيولوجيا تاريخية معينة والتي تشدد على الحرب وبناء الهوية القومية. كذلك يرفض الكاتب ما يمكن تسميته بالوهم الاقتصادي، أي أن تكون ديمقراطية السوق قادرة على توفير معنى أو أفق. «ترفض ديمقراطية السوق كل فكرة التجاوز transcendance. هي ضد الاسطورة، حتى وأن صعب تحقيقها في شكلها الكلي. ترفض ضمناً التوتر الخلاق بين مجال التجربة وأفق التوقع. بكلمات أخرى، لا تطمح للتوصل إلى هدف جديد أو بناء أفق جديد. تبحث فقط عن تدعيم قابلية الحياة للواقع⁶⁰ الموجود» أطروحة الكاتب هي إن اختفاء أفق مستقبلي يقود حتماً إلى التساؤل حول التجربة الحالية وفكرة الفوضى في المعاني. نرى ومنذ التسعينات محاولة الدول الغربية تصدير مؤسسات الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق إلى دول الجنوب، وممارسة ما يمكن تسميته بالاستبدادية المتنورة تجاه هذه الدول. هذا يذكرنا بما قاله الزعيم الصيني ماوتسي تونغ «الأسباب الخارجية هي شروط التغيير والأسباب الداخلية هي أساس التغيير، وتصبح الأسباب الخارجية ذات فعالية من خلال الأسباب الداخلية⁶¹».

لقد رأينا أن هناك تشككاً في ماهية الحرب الباردة (حرب رمزية، وهمية)، لكن أيضاً محاولة فهم وتعليل لهذه الحرب ولنهايتها انطلاقاً من مصطلح تحليلي وهو الهيمنة، والذي ورد عند فالرشطاين وعند روبرت كوكس.

⁵⁹ Zaki Laidi, *ibid*, 1994 pp:160 - 161

⁶⁰ Zaki Laidi, *ibid*, pp.63-64

⁶¹ Cited by Otto Holman, 'Internationalisation and democratization: Southern Europe, Latin America and the World economic crisis' in Stephen Gill, *Ibid*, 1993, pp.213-236, pp.217

بالطبع، هناك اختلاف في تعريف هذا المصطلح، فهو يعنى بالنسبة لفالرشطاين سيطرة اقتصادية، أما عند كوكس فهو يشير إلى قيم وأفكار مشتركة للاعبين دوليين، أو غير دوليين، مقبولة وشرعية. لقد استخدم بعض الواقعيين هذا المصطلح، لكن بمعنى التفوق العسكري والسياسي.

يعتبر ايمانويل فالرشطاين⁶² أن نهاية الإمبراطورية السوفييتية «كارثة جيوسياسية» للهيمنة الأمريكية لأنها شكلت أداة أيديولوجية استخدمتها الولايات المتحدة للسيطرة على دول صناعية مثل دول غرب أوروبا واليابان. بالنسبة للكاتب، فإن مصطلح الهيمنة يعرف من خلال الاقتصاد وليس العسكر أو السياسة. «القوة الكبيرة للولايات المتحدة لم تكن سياسية أو عسكرية بل اقتصادية. لقد كانت قدرة الولايات المتحدة على معاقبة الدول الأخرى (فيتنام، كوبا، نيكارغوا) اقتصاديا. ما يجب ملاحظته هنا، وهو أمر مهم، هو أنه على الصعيد العالمي، لم يلعب الاتحاد السوفييتي إلا دورا ثانويا في معظم الأمور». أصالة أطروحة ايمانويل فالرشطاين تكمن في التعريف الاقتصادي للهيمنة، لكن أيضا في توضيح دور تراجع الهيمنة الأمريكية في انهيار الإمبراطورية السوفييتية. بعد أن ترك لشأنه، حاول الاتحاد السوفييتي التخلي عن الثقل العسكري والإمبريالي، والذي يمثل الشرط الوحيد من أجل الحفاظ على موقعه كقوة دولية، لكن أيضا من أجل بناء نظام داخلي قابل للاستمرار من خلال ارضاء القوميات المختلفة.

مفهوم الهيمنة عند كوكس لا يقتصر على سيطرة دولة معينة في العلاقات الدولية، وقوى اجتماعية داخل حدود قومية معينة، إنما يضعه في نظام عالمي يفهم ككل، والقوى الاجتماعية التي تسيطر في فضائه غير محدودة ضمن إقليميا أو قوميا. «الهيمنة هي بنية من القيم والرؤيا حول طبيعة النظام والتي تخترق مجموعة كاملة من الدول وغير الدول. في نظام يخضع لهيمنة هذه القيم والرؤيا نوعا ما ثابتة وغير قابلة للتساؤل، فهي تظهر لاغلب اللاعبين كجزء من النظام الطبيعي. بنية معاني كهذه تركز

⁶² Immanuel Wallerstein, 'l'Amérique et le monde: Hier, aujourd'hui, demain' Futur Intérieur N0.5 Printemps 1991 pp.31-64 pp.42

على بنية قوة، فيها تسيطر دولة معينة، لكن هذا غير كاف لخلق هيمنة. الهيمنة تنحدر من الطبقات المسيطرة في الدول المسيطرة كل الوقت والتي تتمتع أفعالها وأفكارها بدعم الطبقات المسيطرة للدول الأخرى». نقطتان: نسبية ادعاء الحقيقة، والشروط الاجتماعية تدخلان في علاقة وتؤثران في مكانة النظريات الاجتماعية وعلميتها، فالمعرفة هي عملية صراع اجتماعي بين رؤية ومبادئ هيمنة وهيمنة مضادة.

٢، ١- تراجع الهيمنة الأمريكية في النظام الاقتصادي العالمي

النظام الاقتصادي العالمي يختلف عن الامبراطورية العالمية بأنه لا يملك سلطة سياسية عليا إنما نظام دول في تنافس مستمر، وبالنتيجة هناك هبوط وصعود مستمران للهيمنة. نظام الدول هو نظام هرمي تتنافس فيه الدول على القوة الاقتصادية والعسكرية. الدول القوية تتدخل في الحركة الحرة للتبادل التجاري من أجل ضمان مصالحها، وهذا الأمر يفسر من خلال انعدام سلطة دولية عليا، ويفسر بدوره لماذا عملية التحديث ليست عملية تكرار من مجتمع الى آخر.

ما يميز أطروحة ايمانويل فالرشطاين ليس فكرة تراجع الهيمنة الامريكية والتي نجدها عند مؤرخين مثل بول كندي، إنما كون هذا التراجع يعلل وصول غورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفييتي سابقا. يرتكز الكاتب على تعددية الزمن الاجتماعي عند بروديل الذي يتكلم عن أحداث مفصلية وعن بنى أو فترات تاريخية متكررة، حيث يعلل ما حدث في الاتحاد السوفييتي انطلاقا من تطور النظام الاقتصادي العالمي: تغيير مفصلي- تراجع الهيمنة الامريكية، وتحول بنيوي كما ينعكس في ازمة الاشتراكية السوفييتية كحركة ضد النظام. تفسير فالرشطاين لنهاية الحرب الباردة ينطلق إذن من خصوصية النظام الاقتصادي العالمي وتطوره التاريخي، والذي يتمثل في تراجع الهيمنة الامريكية وازمة الاشتراكية السوفييتية «كحركة ضد النظام» (اي تطمح في تغيير النظام) (لقد تكلمنا عن ذلك سابقا). وصول ميخائيل غورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفييتي ١٩٨٥ والتغير في سياسته الخارجية يعودان الى التطور في موقع الاتحاد السوفييتي في الاقتصاد العالمي.

يعرّف إيمانويل فالرشطاين الهيمنة بمصطلحات اقتصادية، وليس كما يعرفها المفكر الماركسي انطونيو غرامشي بأنها تشير إلى المجتمع المدني أو الجانب الثقافي والأيديولوجي. هيمنة دولة معينة يتوقف على مدى تمركز احتكارات اقتصادية داخلها. عندما يكون هناك تمركز للاحتكارات وعدد كبير من الاحتكارات، تراكم رأسمال، يكتسب صفة الكثافة، فبالنتيجة يعرف الاقتصاد العالمي فترة توسع اقتصادي (Kondratiev A)، وعندما يسطر السوق يكون تراكم رأسمال أقل كثافة، وبالنتيجة يعرف الاقتصاد العالمي حالة من الجمود (Kondratiev B). والولايات المتحدة كانت دولة مهيمنة في فترة ١٩٤٥-١٩٦٧ لأنها شكلت المركز الاقتصادي للرأسمالية العالمية. هذه الفترة كانت فترة استقرار حيث عرفت الرأسمالية العالمية مرحلة توسع تميزت بازدهار الاقتصاد الأميركي. ترافق هذا الازدهار بهيمنة أيديولوجية أمريكية في العلاقات الدولية. القوة السوفييتية لم تكن فقط تبريرا أيديولوجيا يساعد في تدعيم الهيمنة الأمريكية على الدول الغربية واليابان، إنما أيضا أداة أساسية في تثبيت النظام الإمبريالي الأميركي. الجهود السوفييتية لضمان الاستقرار والتحكم في الحركات ضد النظام في أوروبا الشرقية والعالم الثالث تدخل ضمن هذا النظام الإمبريالي الأميركي. لقد لعب الاتحاد السوفييتي دور الشرطي لحسابه ولحساب الولايات المتحدة في إقليم يغطي ثلث المعمورة. في نظره، ارتكزت الاستراتيجية الأميركية على نقطتين: الاحتواء (containment) محاصرة الاتحاد السوفييتي من أجل احتواء العدوى الشيوعية، وتقسيم النفوذ على العالم (اتفاق يالطا). بالنسبة للنقطة الأولى مثل الحلف الأطلسي الأداة التي استخدمت من أجل احتواء الخطر الشيوعي، وبالأخص في فرنسا وإيطاليا حيث تواجد فيهما حزبين شيوعيين قويين. أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية فقد مثلت يالطا ثلاثة إيجابيات للسوفييت وهي: توفير منطقة معزولة في أوروبا الشرقية تمنع صعود جديد للقوة الألمانية، تعويض السوفييت على التضحيات الهائلة إلى قدموها في الحرب العالمية الثانية من خلال منطقة نفوذ في أوروبا الشرقية، وأيضا سيطرة السوفييت على الحركات ضد النظام في أوروبا الشرقية ومنع أحزاب أو نظام شيوعي ذات شرعية قومية مثل النموذج اليوغسلافي أو النموذج الصيني. التسوية

الأمريكية/ السوفييتية (بالطا) مثلت الركن الثاني بعد الحلف الاطلسي للهيمنة الامريكية.

حسب ايمانويل فالرشطايين، الحرب الباردة كحرب ايدولوجية بدأت منذ العام ١٩١٧ وليس العام ١٩٤٥، مع دخول حلبة التاريخ لويديرو ولسون وفلاديمير لينين. قدم كل واحد منهم ايدولوجية متناقضة، لكن، وبنفس الوقت، يوجد بينها ما هو مشترك. تجتمع الفكرة الأمريكية (فكر ولسون) واللينينية (فكر لينين) على ارث فترة التنوير والاقتناع بفكرة بناء مجتمع متكامل. فويلسون طالب بعالم يضمن السلم للديمقراطية، وأراد لينين مجتمعاً دون طبقات. كذلك تجتمع هاتان الأيدولوجيتان على قبول فكرة حق تقرير المصير للشعوب في المحيط، ما يبرز، ولأول مرة، الصراع بين الشمال والجنوب. يوحد فالرشطايين هاتين الأيدولوجيتين باعتباريهما تنوع من الليبرالية.

اتفاق يالطا الذي قسم اوروبا إلى جزأين، اشتراكي ورأسمالي، جسد السيطرة المشتركة، الامريكية-السوفييتية. العلاقات بين الجزأين كانت تتميز بالفصل التام (الحاجز الحديدي)، وبالتوتر وبعدم التدخل في الشؤون الداخلية للمعسكر الاخر. كان هناك اتفاق ضمني بالحفاظ على الوضع القائم في اوروبا، ما يدعو إلى إعادة اعتبار نظرية برجنيف، «السيادة المحدودة» باعتبارها نظرية جونسون-برجنيف، لأن الأمريكان كان لهم مصلحة ايضا في ضبط الوضع في اوروبا الشرقية، ومنع أحداث مثل برلين ١٩٤٨، هنغاريا ١٩٥٦، براغ ١٩٦٨، بولندا ١٩٨٠\٨١. بعد عام ١٩٥٦، أصبح من الصعب على الإتحاد السوفييتي الاستمرار بحالة الجمود، فمع خطاب خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي تولدت حركة نقد داخلية ضد الستالينية و ضد تبعية اوروبا الشرقية لموسكو. وفي سنوات السبعينات، عرفت الهيمنة الامريكية بدورها تحد من قبل الشركات الاوروبية واليابانية على الصعيد الاقتصادي، وتحد من القوى القومية في المحيط على الصعيد السياسي. المشاكل والتحديات التي عرفها النظام الامبريالي الامريكي هي التي قادت إلى التغيرات داخل الإتحاد السوفييتي في سنوات الثمانينات. فترجع الهيمنة الأمريكية لم يترك أمام القيادة السوفييتية خيارا اخر

إلا محاولة الاستمرار بعد الحرب الباردة مع كل ما يتضمن ذلك من مخاطر للدولة السوفييتية المتعددة القوميات.

الحرب الباردة كانت أيضا فترة هيمنة امريكية *pax Americana* لأنصار النظرية النقدية. لكن بخلاف الرؤية الاقتصادية للهيمنة (ايمانويل فالرشطالين)، وبخلاف أدبيات واقعية حول الهيمنة وتوازن القوة (روبرت جيلبن)، يهتم هؤلاء بالهيمنة في وحدة اجتماعية عالمية وليس داخل دولة، والتي تركز على قوى اجتماعية تدخل ضمن الدولة، ولكن أيضا تتجاوز الدولة.

٢,٢- الهيمنة في التوجه الديالكتيكي التاريخي

يتضمن تحليل غرامشي ثلاثة مستويات: البنية الاقتصادية ومستويي البنية الفوقية: المجتمع السياسي والمجتمع المدني. لكي تمارس مجموعة معينة هيمنة داخل المجتمع يجب أن تمارس قيادة سياسية وأخلاقية. على الصعيد الدولي، من الصعب تحقيق هيمنة، بمعنى سيطرة وقيادة سياسية وأخلاقية لقوى اجتماعية تتجاوز حدود دولة معينة. الهيمنة، وكما ذكرنا سابقا، تشير إلى بنية قيم تخترق كل الدول وغير الدول. هذه البنية تركز على بنية قوة وسيطرة، حيث أفعال وأفكار الطبقات الاجتماعية السائدة في الدول الكبرى نالت موافقة الطبقات الاجتماعية السائدة في الدول الضعيفة. علاقات القوة هي في مركز التوجه الديالكتيكي التاريخي، حيث أن كل تغير تاريخي هو ناتج صراع وعلاقات قوة، كما أنه يشير الى تغير في الوعي(هذا يعني انه مثلا في الصراع الطبقي، الطبقة العمالية موجودة ومنذ لحظة نشأتها في الصراع). القوة تعني لأنصار التوجه الديالكتيكي- التاريخي أمرا يربط الخارج والداخل (قوى اجتماعية داخل وعابرة للحدود القومية) وتجمع القدرات المادية والوعي.

تشير الحساسية البنائية إلى تأثير اللاعبين على البنية، وهذا نجده عند روبرت كوكس الذي يتحدث عن بنية تاريخية تتكون، جزئيا، من وعي وفعل الأفراد والمجموعات. وهو يتفق مع البنائية في المنهجية

التفسيرية، وفي اعتبار أن الواقع الإنساني قد تم بناؤه اجتماعيا. الاهتمام هنا، ليس لماذا يختار اللاعبون سلوك معين، إنما كيف يكون اللاعبون هويتهم ومصالحهم قبل أن يختاروا سلوك معين. ما طرحه البنائية ليس بجديد، فإننا نرى ومنذ ماركس وغرامشي وبورديو أن الواقع ليس أمراً معطى وبشكل فوري قابل للملاحظة والمراقبة، فهو واقعا تم بناؤه، يطرح كمشكلة وقابل للتحدي. بكلمات أخرى، لا يمكن تمثيل الواقع بشكل مباشر فمعرفة تتم دائما بواسطة مصطلحات والتي لا يمكن محو الفجوة بينها وبين الواقع. تكلم بورديو عن «نظام تصنيف» وميشيل دوبلي عن «تنافس حول تعريف الواقع»⁶³، بمعنى أن هناك صراع دائم بين قوى مختلفة اجتماعية، قومية وعالمية، من أجل تحقيق وممارسة الهيمنة، من أجل الانتقال من مجرد رأي إلى رؤية عالم مقبولة وشرعية. الصراع حول التصنيف هو صراع رمزي وسياسي من أجل فرض رؤية للعالم الاجتماعي، ومن أجل بناؤه في الوعي والواقع، وبناء الطبقات التي حسبها يتم تقسيم هذا العالم وتصنيفه. يرى بورديو أن «أدوات فكرية لا مفكر بها تحدد ما يمكن أن يفكر به وتحدد بشكل مسبق الفكر» *categories de pensees impensees qui delimitent le pensable et predeterminent la pensee*⁶⁴.

مع دخول العلاقات الدولية في مرحلة تاريخية انتقالية تصبح اللغة والمصطلحات مهمة جدا. في هذه المرحلة يكثر الخطاب الأيدولوجي والمحاولات لإعادة تعريف الهيمنة والتي تخص العلاقات بين الدول والعبارة للدول. هذا ما يؤكد دافيد كومان احد قراء المفكر الواقعي كارل شميت، «يظهر أن الإمبريالية الثقافية واللغوية، أي السيطرة على الكلمات والمصطلحات، تملك تأثيرا اكبر من الإمبريالية الاقتصادية. المهم، في المصطلحات الأساسية في القانون والسياسة هو معرفة من

⁶³ Michel Dobry, *Sociologie des crises politiques*, Paris, Presses de la Fondation nationale de science politique 1992 pp.194

⁶⁴ Pierre Bourdieu, *Lacon sur la lecon*, Paris Minuit 1982 pp.10

يحتكر التعريف، التفسير، والتطبيق، من يملك القدرة على تحديد فحوى المصطلحات الأساسية. (...) لا تقل عن القدرة العسكرية والاقتصادية، القدرة على فرض مفاهيم «هيمنة» للقانون والسياسة، وجعل الشعوب المسيطر عليها تتقبلها وتبناها»⁶⁵.

الهيمنة تخص العلاقات بين الدول والعلاقات العابرة للدول. وهناك من يعتبر أن المنظمات غير الحكومية سواء كانت اقتصادية أو أخلاقية هي الأداة الفضلى للهيمنة، لأنها تشارك الدول الممولة، والتي هي في الأساس الديمقراطيات الغربية معايير حضارية حول ما هو مرغوب وما هو عادل وصحيح. الدعم، من أجل الهيمنة، يهدف إلى الاستقرار، لكن أيضا إلى الديمقراطية، حقوق الإنسان، وباقي المعايير الغربية. كلما كانت الدولة ذات نظاما ديمقراطيا كلما كانت الحكومة أكثر تأثرا بالمنظمات التي تساهم وتصيغ الرأي العام الذي يؤثر بدوره على النظام السياسي. هذا يتفق مع الرؤية التي تركز على أدبيات هيدلي بول حيث أنه لا يوجد نظام دولي يستطيع أن يعمل ويستمر دون بعض القواعد والتفاهات حول كيف على الدول أن تتصرف. ومشروع هيمنة لا بد وأن يتناول هذه القواعد والتفاهات، مثل إدارة النظام الدولي، امتيازات ومسؤولية الدول الكبرى، وحقوق الإنسان.

هناك من يعتقد انه ومنذ نهاية السبعينات هناك محاولة إعادة بناء الهيمنة الأمريكية على يد الإدارة الأمريكية تحت قيادة رونالد ريغان من خلال مهاجمة المؤسسات التي احتضنت فكرة نظام اقتصادي جديد، ونزع الشرعية عن النظم الشعبية اليسارية من أجل تبني اقتصاد السوق⁶⁶. والدمقرطة تدخل ضمن هذا المحاولة. بينما

⁶⁵ David Cumin, 'Imperialisme et droit international, le point de vue de Carl Schmitt' Strategique, 4, N0.68 1997 pp.155-184

⁶⁶ Enrico Augelli and Craig N.Murphy, 'Gramsci and international relations: a general perspective with examples from recent US policy toward the Third World' in Stephen Gill, 1993, ibid, pp.127-147

هناك من يرى أن الفترة هي فترة انتقالية، وفترة أزمة تتميز بقطيعة مع ذاكرة تاريخية جماعية (أريك هوبسبوم)، وعودة لأفكار سابقة مثل المسيحية في الولايات المتحدة والإسلام في العالم العربي. كذلك نجد من يعرف الأزمة بإعادة النظر في ممارسات السيادة، الصلة بين السلطة والإقليم، والتي لم تعد واضحة (برتراند بادي، زكي لايدي).

التوجه النقدي الذي بادر إليه روبرت كوكس في موضوع العلاقات الدولية يذهب أبعد من النظرية البنائية، لأنه يتضمن اهتماماً بالتححر، وهناك التزام معياري وليس محاولة لتبني موقف حيادي معيارياً. الاعتراف بأن العالم الاجتماعي هو واقع تم بناؤه اجتماعياً، وجب تطبيقه أيضاً على النظرية ذاتها، ما يعنى أنه من غير الممكن فصل الواقعي والمعياري. لا تستطيع أية نظرية منع التوجه المعياري في اختيارها للمعطيات كمعطيات مهمة، وفي تفسيرها للمعطيات، وفي اعتبار الدراسة شرعية ومهمة. النظرية عند أرسطو تضمنت عناصر اجتماعية وسياسية، تحليلية وتقييمية تتضمن التفكير بما هو الجيد وما هو الأفضل. وهذا أيضاً ما نجده في اجتهادات انطونيو غرامشي. فبالإضافة إلى ربطه بين نظرية إنتاج المعرفة ونظرية الهوية والمصالح، حيث أن النظرية هي دائماً لطرف معين ولهدف معين، هناك ثنائية في فهم غرامشي للسياسة والدولة، على حد قول ستيفان جيل، فالدولة هي حكم طبقة معينة، والسياسة هي بمفهوم أرسطو تشير إلى المجتمع الجيد بمعنى دولة الازدهار الفردي، الفكر العقلاني، الجدل المفتوح والديمقراطية. من المهم التشديد على أن الهدف من أي تفكير اجتماعي وسياسي هو التعمق في الإمكانيات الخفية للطبيعة الإنسانية، ومحاولة تحقيق أرقى لهذه الإمكانيات. وكما يقول روبرت كوكس: الطبيعة الإنسانية والمؤسسات الإنسانية هي ذاتها التاريخ الإنساني بمعنى عملية إبداع مستمرة.

استنتاجات

بالطبع، في نظر أنصار الواقعية الجديدة، فشل النظرية وجب الحكم عليه بنسبية، لأن النظريات الأخرى لم تكن في وضع أفضل، وأيضا لأن التنبؤ ليس عن «توازن القوى إذا كان قادرا على الاستمرار في حالة تحقيقه، بل إن توازن القوى يستطيع أن يعيد إنتاج ذاته إذا تم تشويشه»⁶⁷.

تعطي نظرية كينيث ولترز أولية للاستمرارية في العلاقات الدولية. هذا يفسر طبيعة الجدل حول نهاية الحرب الباردة، والتي تتمحور حول إعادة تشكيل توازن القوى، تكون الأقطاب في العلاقات الدولية أكثر من عدم القدرة على التنبؤ بنهاية الحرب الباردة.

النقد الذي يوجه هنا إلى النظرية الواقعية الجديدة هو لأنها أرادت أن تكون النظرية في العلاقات الدولية، بمعنى أنها مثلت طموحاً «علمياً» كما يؤكد ريتشارد ند لوباو⁶⁸. تتميز الواقعية الجديدة بتوجه لاتاريخي وبمنهجية افتراضية-إستنتاجية كما في العلوم الدقيقة. طموحها للتوصل إلى قوانين ثابتة وعمومية لا بد وأن يجعلها تستثني جوانب مهمة من الواقع الدولي. من الصعب فهم ما حدث في العلاقات الدولية بسبب انهيار الإمبراطورية السوفييتية انطلاقاً من النظرية الواقعية، هناك فجوة كبيرة بين توقعات النظرية بالنسبة لاستمرارية الحرب الباردة وما حدث في الواقع الدولي.

الواقعية الجديدة التي أرادت التأكيد على طابعها العلمي من خلال تبني منهجية وضعية تميز العلوم الدقيقة (بناء قانون ثابت يسمح بالتنبؤ)، تُنتقد اليوم، وانطلاقاً من التطور في منهجية العلوم الدقيقة، وبالأخص الفيزياء، نظرية الفوضى لإيليا بريجوجين (الحائز على جائزة نوبل) والذي اعتبر بأن بنية منتظمة قد تنحل في حالة فوضى، وأن تكون البنية قد ينتج عن عناصر غير منتظمة من خلال عملية انقسام bifurcation.

⁶⁷ "is not a equilibrium of forces which is able to be maintained once it's achieved, but a equilibrium which can be reestablished once it has been perturbed".

⁶⁸ "the most scientifically self-conscious of realist theories".

كذلك تنتقد الواقعية الجديدة من منطلق التوجه اللاتاريخي الذي تتميز به، إذا لا يمكن تحديد مصلحة لاعب ما دون وضع ذلك في إطار تاريخي. الواقعية الكلاسيكية هي «فن الممكن» والذي تم استخدامه في مجال العلاقات الدولية. بالإضافة إلى ذلك، تُنتقد الواقعية الجديدة انطلاقاً من الحساسية البنائية، والتي تهتم بدور القيم والمعايير في تصرف الدول. في نظر البنائيين، تصرف اللاعب هو ناتج عن ممارسات مفضلة تشير إلى هوية ومصلحة مرتبطتان بشكل وثيق بهذه الممارسات.

ما تقدم يؤكد على توجه تاريخي وسوسيولوجي في دراسة العلاقات الدولية، فإذا كنا مع الواقعية الجديدة نتعاطى مع بنية مجردة يمكن فهمها انطلاقاً من بعض المبادئ، مثل الفوضوية، توزيع القوة الدولية، وظائفية الدولة، وقابلة لأن تنقل إلى أي إطار تاريخي وسوسيولوجي، فإننا نرى تطور مهم مع مصطلح «بنية تاريخية» عند روبرت كوكس، ممثل النظرية النقدية في العلاقات الدولية. البنية تشير إلى نمط من العلاقات في مرحلة تاريخية محددة. يمكن بناء معرفة تكون مرتبطة بظروف هذه المرحلة (نسبية المعرفة). مثال على ذلك، فكرة تعددية الأطراف، فهذه الفكرة وفي الإطار التاريخي الحالي تشير إلى تعددية أطراف-دول، بما أن الدولة هي اللاعب الأساسي على الساحة الدولية. لكن، هناك من يرى أن هذه الفكرة وجب ربطها بمصطلح الحكومة، بمعنى أن تشمل أطرافاً دولية وإطرافاً غير دولية. كذلك البنية هي دائماً أمراً تم بناؤه ولو جزئياً على يد الأفراد والمجموعات. من هنا، لا يمكن أن تكون نظرية إلا معيارية، لأنها بنيت من أجل طرف ما ولتحقيق هدف ما.

إذن كيف يمكن فهم المرحلة التاريخية التي بدأت مع حدث مهم مثل نهاية الحرب الباردة؟ يتفق من يدعم فكرة تغير جذري في العلاقات الدولية إن هذه المرحلة تمثل فترة انتقالية لم تتضح معالمها بعد. هناك تراجع ملحوظ للهيمنة الاقتصادية الأمريكية كما يعتبر إيمانويل فالرشتاين ووليم ويهلפורت، لكن الهيمنة تتضمن أيضاً جانباً إيديولوجياً ومعيارياً لا يقل أهمية عن الجانب الاقتصادي. اعتقد أن مفهوم الهيمنة لا يمكن التعاطي معه انطلاقاً فقط من خلال النظام الدولي والعلاقات بين الدول (حتى وإن وضع داخل مجتمع دولي يشير إلى القيم والمعايير التي تسمح بالتنبؤ بسلوك الدول مثل السيادة، الدولة، والقانون الدولي)، لا بد من الأخذ

بعين الاعتبار للاعبين غير الدوليين. هناك تداخل بين المجتمع الداخلي والمجتمع الخارجي يسقط فكرة التمييز بينهما انطلاقاً من درجة الاندماج (ريمون ارون). العلاقة بين الدولة والمجتمع هي جزء مهم من موضوع العلاقات الدولية التي يقترح روبرت كوكس فهمها وتعليلها انطلاقاً من وحدة التحليل، الكيان الاجتماعي العالمي. النظرية النقدية تتجاوز اهتمامات النظريات التي تهتم بحل المشاكل (problem-solving theories) كما يسميها روبرت كوكس. في نظره، هناك إمكانية للتعليل، بمعنى التوصل لتعميمات، لكن ضمن فترة تاريخية، وضمن فهم للصيرورة التاريخية⁶⁹.

تمثل المنظمات غير الحكومية أداة مميزة في تحقيق هيمنة معينة في المرحلة الحالية، والتي تتميز وفقاً لـزكي لايدي وبرتراند بادي بتلف دينامية الدولة والدينامية الأيديولوجية التي انبثقت من فترة التنوير، بمعنى رفض للعمومية كعملية غريبة للمجتمعات غير الأوروبية. مشروع الهيمنة الحالي لا يركز على السيادة والاستقلالية، كما كان الوضع في فترة الحرب الباردة، بل على الديمقراطية واقتصاد السوق (الليبرالية الجديدة) والمساعدات الخارجية تذهب اليوم إلى ما يسمى المجتمع المدني، والذي يجمع بين الديمقراطية واقتصاد السوق. بالطبع، هذه الهيمنة التي تمارسها الديمقراطيات الغربية تجد مقاومة ليس فقط عسكرياً واقتصادياً، بل فكرياً أيضاً، هذا ما نشهده مثلاً في اكتشاف مفكر مثل كارل شميت الذي، ورغم ارتباطه في مرحلة معينة بالنظام النازي، إلا أن اجتهاداته يستعان بها من أجل نقد الديمقراطية الليبرالية. المرحلة الحالية هي مرحلة انتقالية تشهد اضطرابات وأزمات (كما الأحداث الأخيرة في العراق ولبنان وفلسطين) تنتج من محاولة إعادة تنظيم مشروع الهيمنة للدول الغربية التي تحاول أن تلعب دور «المستبد المتنور» تجاه العالم غير الغربي.

⁶⁹ ...relative strength of problem-solving theory, however, rests upon a false promise, since the social and political order is not fixed but (at least in a long range perspective) is changing.

(...)Critical theory contains problem-solving theories within itself, but contains them in the form of identifiable ideologies, thereby pointing to their conservative consequences, not to their usefulness as guides to action.” Robert Cox and T. Sinclair, *ibid*, 1996, pp.89/90

مراجع:

Books:

1. Bourdieu. Pierre, 1982, Lacon sur la lecon, Paris Minit
2. Castoriadis. Cornelius, 1990, La societe imaginaire, Paris, Christian Bourgeois
3. —————, 1981, Devant la guerre, Paris, Fayard
4. Dobry. Michel, 1992, Sociologie des crises politiques, Paris, Presses de la Fondation Nationale de science politique.
5. Djilas. Milovan, 1982, Ecris politiques, Paris, Pierre Belfond
6. Gill. Stephen, 1993, Gramsci, Historical materialism and international relations, Cambridge, Cambridge University Press.
7. Hobsbawm. Eric, 1994, The age of extremes: A history of the world 1914-1991, New York Pantheon Books
8. Hollis. Martin, 2002, The philosophy of social science: An introduction, Cambridge, Cambridge University Press
9. Hollis. Martin, and Smith. Steve, 1990, Explanation and understanding of the international relations, Oxford, Clarendon Press
10. Laidi. Zaki, 1994, Un monde prive de sens, Paris, Fayard,
11. Nijman. Jan, 1993, The geopolitics of power and conflict: superpowers in the international system 1945-1992, London, Belhaven Press
12. Portelli. Hugues, 1972, Gramsci et le bloc historique, Paris, PUF
13. Revel. Jean-Francois, 1992, Le regain democratique, Paris, Fayard
14. Rosenau. James, and Durfee. Mary, 1995, Thinking Theory Thoroughly: coherent approaches to incoherent world, Westview Press.
15. Sinclair. Timothy, and Cox. Robert, 1996, Approaches to world order, Cambridge University Press

16. Veyne. Paul, 1971, Comment on ecrit l'histoire, Paris, edition du Seuil
17. Wallerstein. Immanuel, 1991, Unthinking social science: The limits of nineteenth century paradigms, UK, Polity Press
18. Wright, Georg Henrik Von, 1971, Explanation and understanding, Ithaca, New York, Cornell University Press.

Articles:

1. Annan. Kofi, 'Deux concepts de la souveranete' Le Monde, 22 septembre 1999
2. Badie. Bertrand, 'La realpolitik classique qu'on connait depuis deux siecles s'estompera' le Monde, 13 avril 1999
3. Brooks. Stephen, 'Dueling Realisms' International Organization, 51, 3, Summer 1997, pp.445-477
4. Cumin. David, 'l'imperialisme et le droit international, le point de vue de Carl Schmitt' Strategique 4, N0.68, 1997, pp.155-184
5. Gaddis. John Lewis, 'International relation theory and the end of the Cold War' International Security, vol.17, N0.3 Winter 1992/93, pp.5-58
6. Gaddis. John Lewis, 'History, theory and common ground' International Security, vol.22, N0.1, Summer 1997 pp.75-85
7. Gerard. Michel, 'Turbulence dans la theorie politique internationale ou James Rosenau, inventeur' Revue Francaise de Science Politique vol.42, N0.2 aout 1992 pp.636-643
8. Jewitt. Ken, 'After Leninism, the new world disorder' Journal of Democracy, vol.2 N0.1 Winter 1991 pp.12-44
9. Halliday. Fred, 'The end of the Cold War and international relations: some analytic and theoretical conclusions' in Ken Booth and Steve Smith, 1995, International relations theory, London, Polity Press, pp.38-59

10. Kapstein. Ethan, 'Is realism dead? The domestic sources of international politics' *International Organization*, 49, 4, Autumn 1995, pp.451-774
11. Keohane. Robert, 'Organisation internationale: quels fondements theoriques' *Problemes Economiques*, La Documentation Francaise, N0.2611-2612, 7-11 avril 1999, pp.36-40
12. Kuron. Timur, 'Out of never: surprise in the East European Revolution of 1989' *World Politics*, vol.44, N0.1, October 1990, pp.7-48
13. Lebow. Richard Ned, 'The long peace, the end of the Cold War and the failure of realism', *International Organization*, 48, 2, 1994 pp.249-277
14. Mearsheimer. John, 'The false promise of international institutions' *International Security*, vol.19, N0.3 Winter 1994/5 pp.5-49
15. Mearsheimer. John, 'Back to the future: instability in Europe after the Cold War' *International Security*, vol.15, N0.1, Summer 1990 pp.2-56
16. Pasquino. Pasquale, 'Thomas Hobbes, la condition naturelle de l'humanite' *Revue Francaise de Science Politique*, vol.44, N0.2 1994 pp.294-307
17. Roche. Jean-Jacques, 'Les relations internationales: theorie ou sociologie?' *Trimestre du Monde*, 3e trimestre 1994 pp.35-46
18. Roslowski. Rey, and Kratchowil. Freidrich, 'Understanding change in international politics: the Soviet empire's demise and the international system' *International Organization*, 48, 2, Spring 1994, pp.215-247
19. Stack. John.F, 'The challenge of ethnonationalism' in Steve L.Lamy, *Contemporary international issues: contending perspectives*, 1988, Boulder and Lynne Rienner Publishers pp.229-245

20. Wallerstein. Immanuel, 'L' Amerique et le monde, Hier, Aujourd'hui, et Demain' Futur Interieur, N0.5 printemps 1991 pp.31-64
21. Waltz. Kenneth, 'Realist Thought and neorealist theory' Journal of International Affairs, vol.44, N0.1, Spring/Summer 1990 pp.21-37
22. Waltz. Kenneth, 'The emerging structure of international politics' International Security, vol.18, N0.2 Fall 1993 pp.44-79
23. William. Phil, 'US-Soviet relations: beyond the Cold War?' International Affairs vol.65, N0.2, Spring 1989, pp.273-288
24. Wohlforth. William, 'Realism and the end of the Cold War' International Security vol.19, N0.3, Winter 1994/95 pp.91-129

Articles (internet):

1. Franck. Robert, 'Penser historiquement les relations internationales' Annuaire Francais des Relations Internationales, 2003, vol.4
[Http://www.diplomatie.gouv.fr/fr/actions-france_830/etudes-recherches_349/annuaire-francais-relations-internationales-3223afri-2003_8324html](http://www.diplomatie.gouv.fr/fr/actions-france_830/etudes-recherches_349/annuaire-francais-relations-internationales-3223afri-2003_8324html)
2. Holti. K.J, ' The problem of change in international relations theory' working paper N0.26 presented ISR-ECPR in Vienna, September 1998
3. Martres. Jean Louis, 'De la necessite d'une theorie des relations internationales, l'illusion paradigmaticque' Annuaire Francais des Relations Internationales, 2003, vol.4, idem

تعقيب

تعقيب

د. سمير عوض*

بداية لا بد من القول أن كاتب هذه الورقة وطف جهدا كبيرا ودارية وخبرة واسعة أثناء بحثه لانجازها، وذلك بالرغم من بعض السمات التي تمتاز بها الورقة بشكل عام، من حيث القراءة غير السهلة، والانطباع الذي يتوصل إليه القارئ بان الورقة قد تكون اقرب إلى مراجعة الأدبيات، منها إلى ورقة بحثية رصينة.

١,٠ رؤيا نقدية شاملة للمقالة

أول ما نلاحظه هو محاولة الباحث تقديم نظرة نقدية، وإن كانت مجتزأة، للمدرسة الواقعية الجديدة، والأدوات الأساسية التي تستخدمها في تحليل السياسة الدولية، خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة. وبالرغم من أن الورقة تكثف نقدها للنظرية الواقعية الجديدة بعد انتهاء الحرب الباردة، إلا أنها في الواقع، وحسب رأينا، تخوض في مجال فلسفة العلوم أكثر منها في مجال العلاقات الدولية، بمعنى أنها تحاول تقييم

* أستاذ العلوم السياسية - جامعة بيرزيت.

نظرية العلاقات الدولية من حيث كونها نظرية، ولا تناقش الأسئلة الرئيسية التي تحاول تلك النظرية إجابتها، أو البحث حولها، مثل مسألة الكسب النسبي مقارنة بالكسب المطلق، ومسألتي الإرهاب والحرب غير المتكافئة. عملت الورقة في الحقيقة على تقديم نقد للنظرية الواقعية الجديدة وذلك من خلال استهدافها لقدرات النظرية التنبؤية بالأساس، وخاصة فيما يتعلق بفشل الواقعية الجديدة في توقع آلية انتهاء الحرب الباردة.

٢,٠ محتوى الورقة

نلاحظ كذلك في هذه الورقة، أن الكاتب يوجه نقده في الأساس لنظرية المدرسة الواقعية الجديدة دون غيرها من نظريات العلاقات الدولية، وذلك لأنها عرضت نفسها وكأنها نظرية العلاقات الدولية التي تملك قوانين وتفاهات وأدوات تحليل خاصة بها، وكذلك منهج تحليل خاص بها، كما أنها تقترب من الادعاء بأنها النظرية «العلمية» الجدية الموجودة لدراسة وتحليل السياسة الدولية. إننا لا نرى أي نقد جدي لأي من النظريات الأخرى التي تحتل فضاء العلاقات الدولية، مثل النظرية الليبرالية الجديدة أو البنيوية أو العالمية.

إضافة لذلك، فالباحث يحاول كسر النظرة السائدة للعلاقات الدولية والتي تعاني بحد ذاتها من هيمنة أمريكية شبه كلية، وخاصة في مجال إنتاج المعرفة، ما قد يؤدي إلى تأثر «علمية» النظرية الواقعية الجديدة بالمشروع السياسي والأيدولوجي حسب رأي الكاتب، ربما بسبب خصوصية تعليمه وتأثره بالمدارس الأوروبية «الفرنسية والانجليزية».

فالماركسية مثلاً، ونظريات النقد الراديكالي، تنبأت بشكل قوي وواضح بانتهاء النظام الرأسمالي، ولكن ما حدث في النهاية بعد انتهاء الحرب الباردة هو انهيار المنظومة الاشتراكية، وسيطرة، بل وهيمنة، الرأسمالية بصورتها الديمقراطية الليبرالية وباقتصاد السوق الذي توسع ليتخطى كل الحدود المعروفة، ولا يوجه الباحث أي نقد موضوعي قدر الإمكان لهذه النظريات، باستثناء النظرية الواقعية الجديدة.

وقد حاولنا إيجاد تبرير لذلك، وهو أن الكاتب ربما اختار توجيه النقد للنظرية الواقعية الجديدة لأنها اقرب النظريات لان تكون نظرية علمية شاملة، بالرغم من أن الكاتب لم يشر إلى ذلك، ولم يقيم بتحديد الأسباب التي دفعته إلى نقد النظرية الواقعية الجديدة دون غيرها من النظريات التي فشلت في التنبؤ بمختلف المجريات على الساحة الدولية. إن إحدى الأدوات الرئيسية التي تستخدمها هذه النظرية، وهي نظرية اللعبة، وبالأخص لعبة «معضلة السجين»، في النظرية الواقعية الجديدة لم تعد قادرة على تقديم نموذج تحليلي للسياسة الدولية، ولكن في المقابل يقدم الباحث نموذجاً ثانياً، وهو نموذج «حريق في المسرح»، من غير توضيح لمدى إنطباقه على السياسة الدولية، وطبيعة الإضافة التي يقدمها لبحث القضايا الرئيسية على الساحة الدولية، مثل المعضلة الأمنية (Security Dilemma) وبدون توضيح لقوانين هذا النموذج، أو أي دليل على أن هذا النموذج يقدم تحليلاً أوفى للسياسة الدولية، فالباحث يؤكد على دخول قيم أخرى غير القوة في العلاقات ما بين الدول وفي السياسة الدولية بشكل عام، فالإيدولوجيا والقيم الاجتماعية والسياسية لها تأثير أكبر في القوة، وفي رسم السياسات الدولية، حسب رأي الكاتب.

٣,٠ تقييم التقييم

ما نود الإشارة إليه هنا هو أن الكاتب تحيز ضد النظرية الواقعية الجديدة متنازلاً عن العلمية والموضوعية في النقد، وذلك لأنه لم تنجح أية نظرية أخرى من نظريات العلاقات الدولية في تنبؤ نهاية الحرب الباردة، وبالتالي هل المطلوب هنا هو التأكيد على عدم وجود نظرية في العلاقات الدولية؟ وحسب قراءتي للورقة فإن الكاتب يحاول القول بعدم وجود نظرية في العلاقات الدولية قادرة على التنبؤ والتعليل والتفسير، وبالتالي، فما تبقى من الورقة هو اقرب إلى فلسفة العلوم منه إلى دراسة نقدية لنظرية العلاقات الدولية، وحتى في هذا المجال فإن الورقة تعاني من نقص شديد، حيث لا يرد فيها أي ذكر للفيلسوف إمري لاکاتوش أو لمارتن بوبار أو لتوماس كون أو لغيرهم من فلاسفة العلوم

الهامين في مجال نقد وتقييم النظرية. يكرر الكاتب في أكثر من مكان مهاجمته ونقده للقوة التنبؤية للنظرية الواقعية الجديدة، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن القوة التنبؤية في النظريات ليست الأهم، وأن كان من الضروري عدم وجود فجوات كبيرة بين النظرية والواقع.

تكرر في أكثر من مكان في هذه الورقة البحثية استخدام مصطلح فوضى بدلا من «لا سلطة» وذلك لوصف النظام الدولي، بالإضافة إلى عدم تتابع الأفكار وتسلسلها في هذه الورقة، فهي اقرب لكونها تنقل سريع ما بين أفكار مختلفة غير مرتبطة في بعضها البعض كما ينبغي في الأوراق البحثية، بالإضافة إلى طريقة الكتابة الغريبة بعض الشيء، حيث تتسم بوجود نوع من التعقيد الذي يستعصي على الفهم في بعض الأحيان.

نلاحظ كذلك قيام الباحث بالتركيز على باحث أو كاتب آخر من الباحثين الذين استعان بهم لإنجازها لمدة صفحتين أو أكثر، ثم يتم الانتقال إلى كاتب آخر وأسئلة أخرى ووجهة نظر مختلفة. وهذا يعني أن مواضيع الورقة تتغير حيث لا يوجد تشابك بينها، حيث نلخص ذلك بان الانعطافات في الورقة تمتاز بأنها حادة في معظم الأحيان. ما نود الإشارة إليه هنا أن تركيز الباحث في هذه الورقة على باحثين هما «لويس جاديس» و«فريد هالدي» هو أمر مثير للجدل، كون الباحثين ليسا من المنظرين الأساسيين في مجال العلاقات الدولية، حيث كان يفترض إحضار ستيفن والت وجون ميرشايمر وروبرت كوهين إلى الصورة. وعند استعراض آراء الباحث «وليم هلفورت» فإن الكاتب لا يتطرق إلى أي من المواضيع السابقة التي تم الخوض فيها في هذه الورقة، فطريقة الكتابة التي استخدمها الباحث اقرب ما تكون إلى عرض الدراسات السابقة كما اشرنا سابقا، فلا يوجد ما يمكن تسميته بالحوار والنقاش ما بين الكتاب والباحثين الذين تم الاستعانة بهم من خلال إيضاح آرائهم لإنجاز هذه الورقة، فالسمة الغالبة هي عدم الترابط ما بين الأفكار المطروحة، وكذلك ما بين آراء الكتاب المتضمنة لها الورقة.

٤,٠ ملاحظات جانبية

عندما يتطرق الباحث إلى «كينيت وولترز» ومساهمته في محاولة تعليل استمرار الحرب الباردة، وإستراتيجية توازن القوى، وهذه تعد التوقع الأقوى في النظرية الواقعية الجديدة، فإن الكاتب لم يقدم توضيحا لهذه الأهمية الأكبر في النظرية، بالإضافة لذلك نرى بان مصطلح help-self قد طرح بطريقة غير واضحة، وهو يحتاج إلى تقديم محاولة تفسيرية اكبر من التي قدمت في الورقة. وفيما يتعلق بمصطلحات ك hegemonic state و revisionist state كان لا بد للكاتب أن يقوم بإيضاح وشرح هذه المصطلحات أكثر مما هو وارد في هذه الورقة، لأنها تحتاج إلى توضيح، بحيث لا يمكن المرور عليها بشكل عابر كما تم في هذه الورقة التي ما بين أيدينا.

أما عندما يتحدث الكاتب عن «الواقعية الجديدة إلى الواقعية ما بعد التقليدية» فنرى بأن الكاتب قد بدأ بتقديم المساهمات الجديدة والجدية في هذه الورقة. بالنسبة لتحليل الباحث لمركزية وأولية الدولة في العلاقات الدولية فهو مهم جدا حيث يرى الكاتب أن سبب هذه المركزية الأولية للدولة دفعت حتى بالدول الجديدة إلى محاولة تثقيف مجتمعاتها وفقا للنموذج الغربي للثقافة المدنية والفكر السياسي العلماني، وكذلك فيما يتعلق بتحليله بمصطلح «الغبنة» والثقافة التقليدية للمجتمعات المختلفة.

آخر ما نود الإشارة إليه هنا في نقدنا لهذه الورقة بان الكاتب في حديثه عن الهيمنة في العلاقات الدولية فانه يلجا إلى تحليل الوضع السياسي بعيدا عن نظريات العلاقات الدولية، وهذا يؤكد ما اشرنا إليه أكثر من مرة أن الهدف الأساسي للباحث من إنجاز هذه الورقة هو إثبات فكرة عدم وجود نظرية في العلاقات الدولية، وان العلاقات الدولية يمكن دراستها وتحليلها وتفسيرها بعيدا عن نظريات السياسة الدولية.

وفي النهاية فإن فكرة اعتبار أن فترة الحرب الباردة كانت فترة هيمنة أمريكية حسب رأي الكاتب، فإن مثل هذه الفكرة تحتاج للقليل من التوضيح، وخاصة أن معظم الآراء المتعلقة في الموضوع تؤكد على صورة الصراع بين قطبي نظام دولي بأكمله، وليس هيمنة قطب واحد.

تعقيب

د. سامر الفارس*

على الرغم من عدم اختصاصي بالعلوم السياسية والعلاقات الدولية، فإنه، وفي ظل قرائتي لورقة «النظرية والأيديولوجية في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة» والمعدة من قبل د. جوني عاصي، أود الإشارة إلى الملاحظات التالية:

من حيث الشكل: لقد قسمت الورقة بطريقة جيدة جدا عكست التطور المنهجي للنظريات المختلفة في تفسير العلاقات الدولية، وخاصة تلك المتعلقة بالفترة الواقعة ما قبل نهاية الحرب الباردة. ابتعد الكاتب عن التعقيد في طرح العناوين بحيث أوجد ذلك سهولة كبير على القارئ في ربط كل موضوع بالمواضيع الأخرى. من ناحية أخرى كان هناك اهتماماً جيد جداً بالمراجع والتوثيق عموماً.

من حيث الجوهر: الإشارة إلى النظريات الفقهية المختلفة وتشابكاتها وتأثيرها على بعضها البعض، مع مناقشة نقاط الضعف لكل منها، أضاف إلى الدراسة بعداً مهماً ليس من السهل التعامل معه في موضوع

* مدير معهد الحقوق - جامعة بيرزيت.

متشعب ومعقد يعالج العلاقات الدولية التي تحكمها مجموعة كبيرة من المتغيرات والعوامل. لقد نجحت الورقة وإلى حد كبير بتفسير العلاقات الدولية التي اتبعتها النظام الشيوعي حتى انهياره عام ١٩٨٩، وخاصة الأسس والمبادئ التي بنيت عليها سياسة الاتحاد السوفيتي السابق. بالمقابل، كان هناك تعمقاً جيداً بالأساليب السياسية التي اتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية في التعامل مع النظام الشيوعي وسياساته في الفترة ما قبل انهيار الاتحاد السوفيتي.

على الرغم من هذا التعمق في دراسة العلاقات الدولية بين الاقطاب الاساسية السياسية في القرن الماضي، فإنني اعتقد أنه كان على الكاتب أن يأخذ ضرورة الأمور التالية بعين الاعتبار من أجل تطوير الورقة وصبغها بصبغة واقعية:

١. تعمق الباحث وبشكل كبير في مناقشة النظريات الفقهية الفلسفية المختلفة التي عالجت العلاقات الدولية ما قبل وبعد الحرب الباردة دون ربطها بالواقع. مناقشة النظريات الفقهية دون ربطها بالواقع تجعل من الصعب على غير مختصي العلوم السياسية فهم المقصود من كل هذه النظريات، والهدف الذي يسعى الباحث للوصول اليه. لذلك أرى أنه كان من الضروري بمكان ربط النظرية بالواقع من خلال شرح، على سبيل المثال، الأساليب التي اتخذتها الولايات المتحدة لإضعاف وإسقاط النظام السوفيتي السابق.

٢. لقد ركزت الورقة، وبشكل كبير جداً، على تفسير وتحليل العلاقات الدولية خلال فترة الحرب الباردة (حتى ١٩٨٩). على الرغم من أهمية هذا التحليل للقارئ، والذي يهدف إلى فهم النظريات التحليلية التي حكمت العالم قبل نهاية الحرب الباردة، وأثره، بالتالي، على موضوع الورقة والمتعلق بالعلاقات الدولية بعد الحرب الباردة، إلا أنني اعتقد بأن الكاتب قد بالغ في معالجة هذا الموضوع على حساب الموضوع الأهم، وهو العلاقات ما بعد الحرب الباردة (يوجد أكثر من ١٦ صفحة تعالج فترة ما قبل الحرب الباردة من اصل ٣٠ صفحة). لقد كان من الأفضل اختصار معالجة فترة الحرب الباردة

إلى أهم النظريات التي يمكن من خلالها ربط فترة ما قبل نهاية الحرب الباردة بما بعدها على اعتبار أن اللاحق هو الأساس.

٣. ركزت الورقة على تفسير النظريات السياسية التي حاولت فهم الإستراتيجية السياسية للإتحاد السوفيتي السابق دون التركيز على السياسة التي اتبعتها روسيا (ورثة الاتحاد السوفيتي) بعد نهاية الحرب الباردة، على الرغم من امتلاكها المقومات الأساسية لصنع السياسة العالمية والتاثير فيها، مثل النفط (الاقتصاد) والردع النووي.

٤. الأهم من ما سبق هو أن الباحث لم يعطِ السياسة الأمريكية، بعد نهاية الحرب الباردة، حقها بالبحث والتحليل. فالنظام السياسي العالمي منذ نهاية الحرب الباردة هو نظام أحادي القطب (بعد أن كان ثنائياً) تتفرد فيه الولايات المتحدة بصنع السياسة العالمية بسلبياتها وإيجابياتها. لقد كان من الضروري التطرق إلى السياسة الأمريكية في عهد بوش الأب، والتي تميزت بالانفرادية وعدم اعطاء الشرعية الدولية الكثير من الاهتمام، وخاصة العلاقة ما بين أمريكا ومنطقة الشرق الأوسط. ثم مناقشة السياسة المختلفة تماما التي تبناها الرئيس الأمريكي بل كلنتون والتي اعتمدت بشكل كبير على ادارة السياسة الدولية من خلال شبه اجماع دولي متمثل باحياء دور منظمة الامم المتحدة، ثم محاولة فهم وتفسير السياسة الأمريكية لبوش الابن، والتي اعتبرت امتدادا لسياسة بوش الاب. والأهم من ذلك كله آثار ٩/١١ على السياسة الأمريكية، وما نشهده اليوم من حروب وصراعات. اعتقد أنه كان على الباحث محاولة تفسير كل هذه العناصر في ورقته، باعتبارها الأساس الذي تعتمد عليه السياسة الأمريكية الخارجية، وبالتالي العنصر الأهم الذي يضبط العلاقات الدولية عموماً.

في النهاية اعتقد أن الورقة المعدة من قبل د. جوني عاصي مهمة جداً لفهم العلاقات الدولية في الفترة الواقعة قبل نهاية الحرب الباردة، وإذا أُخذت الملاحظات أعلاه بالاعتبار، فستصبح مرجعاً مهماً جداً في فهم العلاقات الدولية قبل وبعد نهاية الحرب الباردة.

صدر حتى الآن من هذه السلسلة

- ١- لكي نتخطى الأزمة: نحو خطة استراتيجية جديدة للعمل الفلسطيني
علي الجرباوي.....
- ٢- سياسة الولايات المتحدة الخارجية والقضية الفلسطينية
فؤاد المغربي.....
- ٣- خصوصية نشوء وتكوين النخبة الفلسطينية
حسن خضر.....
- ٤- من الجهاد إلى التعايش السلمي: تطور المفاهيم الإسلامية في
السياسة والعلاقات الدولية
رجا بهلول.....
- ٥- الثقافة السياسية في فلسطين: دراسة ميدانية
محمود ميعاري.....
- ٦- الحق السعودي في جنوب النقب الفلسطيني
محسن يوسف.....
- ٧- The Myth of Camp David or the Distortion of the Palestinian Narrative
Helga Baumgarten.....
- ٨- Prospects for and Obstacles to Achieving a Viable Palestinian State
Martin Beck.....
- ٩- اليسار الإسلامي - إطلالة عامة
نصر حامد أبو زيد.....
- ١٠- العلاقات العربية - العربية في ظل الهيمنة الأمريكية - رؤية استراتيجية
حسن نافعة.....

- ١١- الأمم المتحدة وأزمة الدبلوماسية المتعددة الأطراف
جونني عاصي.....
- ١٢- Beyond the Armed Struggle
Jean Allain.....
- ١٣- معوقات الدور الأوروبي في تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي
غسان العزي.....
- ١٤- الإصلاح: جذوره ومعانيه وأوجه استخداماته «الحالة الفلسطينية ... نموذجاً»
باسم الزبيدي.....
- ١٥- فك الصهيونية: الفضاء والإيديولوجيا في المدينة الإسرائيلية
إسماعيل الناشف.....
- ١٦- العولمة والأصولية: الحالة الإسلامية
عبد الكريم الدرغوثي.....

معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية

نشأ معهد الدراسات الدولية في جامعة بيرزيت بهدف رعاية برنامج الماجستير في الدراسات الدولية، الذي بدأ العمل به في العام ١٩٩٤، ويشتمل على مواد أكاديمية في حقول السياسة والتاريخ والاقتصاد والقانون. ويقوم المعهد بتقديم خدمات أساسية للمتخصصين في مجال الدراسات الدولية، وخصوصاً طلبة برنامج الماجستير وأعضاء الهيئة التدريسية. يضم المعهد مكتبة متخصصة، ويرعى إقامة برامج تدريبية متنوعة تمنح الطلبة الفرصة لصقل خبراتهم الأكاديمية وإكسابهم المهارات العملية الضرورية للتميز في مجال التخصص. ويعمل المعهد على إتاحة الفرص أمام المتخصصين في مجال الدراسات الدولية للقيام بأبحاث ودراسات، وللتواصل مع نظرائهم في الجامعات المختلفة، ولفتح المجال لإجراء نقاشات معمقة للقضايا الدولية المعاصرة. يقوم المعهد بشكل دوري منتظم بتنظيم مؤتمرات وندوات أكاديمية دولية ومحلية متخصصة وعقد ورش تدريبية داخل البلاد وخارجها.

وللمعهد سلسلة منشورات خاصة يأتي هذا الكتاب ضمنها.